# الجـــزء الأول

## التاريخ العام والتاريخ السياسي

## الفصل الأول

# منطقة ما بين النهرين قبل عام ٢٠٠٠ ق.م

إن إحدى الصعوبات التي تظهر عند مناقشة حضارة منطقة ما بين النهرين القديمة تكمن في معالجة المصطلحات الفنية الجغرافية. وبالنسبة لآراء بعض المطلعين على العمليات البريطانية في الشرق الأدنى خلال الحرب العالمية الأولى فإن منطقة ما بين النهرين نفسها هي منطقة غامضة، فهي تعني المنطقة الواقعة ما بين وحول نهري الفرات ودجلة ابتداءً من الخليج العربي حتى الموصل. أما بالنسبة لآخرين قد سكنوا هناك وتعاملوا مع القضايا الكلاسيكية، فهي تعني المنطقة الواقعة إلى الشمال الغربي من تلك. ولكننا سوف نتعامل مع منطقة ما بين النهرين طبقاً للمفهوم الأول. أما العراق فهو لا يقلُّ غموضاً عن تلك. إذ من الممكن استعمالها (كما هو الحال في هذا الكتاب) بشكل ينطوي على مفارقة تاريخية بالنسبة للأزمنة القديمة لتعني اشتمالها على المنطقة بأجمعها والتي أصبحت تدعى حديثاً بهذا الاسم ولكن وبالنسبة للمؤرخين من العرب فإن لها معنى أكثر تحديداً. فبلاد بابل وبلاد أشور هما مصطلحان متلائمان، فهما يدلان أصلاً على المملكتين الرئيسيتين الشمالية والجنوبية في المنطقة ذات العلاقة ابتداءً من الألف الثاني ق.م فصاعداً. ولكنهما غالباً ما استعملا بشكل غير دقيق لتعينها المناطق الشمالية والجنوبية دون الرجوع إلى الأوضاع السياسية للدلالة على زمن يقع قبل أن توجد بابل. فقد كان الاسم السائد هو سومر وهو يعني القسم الجنوبي وأكاد وهو يعني القسم الشمالي من منطقة بابل.

وفي بعض الفقرات في هذا الكتاب وخصوصاً في أوائل أبحاث التاريخ الثقافي. هناك القليل من المبررات إن لم تكن المبررات المنطقية معدومة لمعالجة الحوادث في

العراق بمعزل عن المناطق المحيطة به فقد أمكن اعتبار المسافات والأمكنة على التحديد العام للمنطقة بشكل مقيَّد. وهكذا أصبح من الممكن إلقاء نظرة عابرة على الحوادث والتطورات في المناطق المحيطة.

في العراق (وكما هو الحال في بعض المناطق من أوروبا وآسيا) فقد أصبح الآن مُمكناً تقصي الوجود والاستيطان البشري بالرجوع إلى مرحلة من التطور تدعى العصر الحجري القديم حيث كان قوام الغذاء البشري فيه منحصراً بالصيد وتجميع مواد الطعام قبل البدء بالمعيشة في مستوطنات مستقرة وقبل السيطرة على عملية تجميع المواد الغذائية عن طريق ترويض ورعي المواشي وإكثار الحيوانات وإنماء الحبوب. ولكن الشواهد الموجودة في العراق والتي تدل على هذه المرحلة ليست شاملة كونها منحصرة في مواقع قليلة في الأراضي المرتفعة. ولكن ومع أن الشواهد قليلة، إلا أنه يكفينا أن نقرر زمن وجود الإنسان في العراق (كما في المناطق المحيطة به) ابتداءً من فترة تقريبية ما بين مئة ألف عام ومئة وخمسين ألف عام مضى.

وفي تلك الفترة كان القسم الشمالي من العراق يمثل أراضي وحيوانات مختلفة عن ما هو موجود في تلك المنطقة في الوقت الحاضر.

ففي خلال الأزمنة التاريخية كانت المنطقة التي تشمل العراق ولا تزال تفتقر إلى هطول الأمطار مما جعل بعضها غير قابل للعيش فعلاً، وهي المناطق البعيدة عن أودية الأنهار. ولكن لم تكن هذه الحالة هي السائدة دوماً، إذ إنه وقبل مئة ألف عام مضى وعندما كانت الكتل الجليدية تغطي مساحات واسعة من أوربا الشمالية، كانت المنطقة ما بين الساحل الأطلسي وعبر شمال أفريقيا والشرق الأوسط وصولاً إلى إيران تتمتع بقدر أكبر بكثير من الهطولات المطرية وكانت المنطقة بأجمعها تُمثل نوعاً من الحدائق الغناء ذات الحياة النباتية الكافية لترعى فيها تلك الأعداد الكبيرة والواسعة من المواشي وغيرها من الحيوانات. ومن بين هذه الحيوانات كان هناك مخلوق نادر من جامعي الأطعمة يمشي على قدمين وهو المعروف باسم رجل العصر الحجري القديم، وقد وجدت شواهد تدل على الاستيطان

البشري في العراق في تلك الفترة القديمة ومنها كهف واقع في مكان يدعى باردا بالكا Barda Balka حيث اكتشفت فيه أدوات حجرية من أنواع وجدت في بعض الأماكن في آسيا وأفريقيا. وإلى جانب تلك الأدوات هناك بقايا حيوانات كالفيل والغزال الكبير التي كانت أكثر وجوداً في تلك المنطقة من الإنسان نفسه.

هذا وإن الاستيطان البشري في العراق حوالي نهاية فترة جامعي الغذاء كان يُمثل ببعض البقايا التي وجدت في كهوف زارزي Zarzi وهازار ميرد Hazar Merd في التلال في لواء السليمانية يرافقها بعض المصنوعات الصوانية التي توصف بكونها من العهد الأوريجانسي والموستيري Aurignacian and Mousterian [1].

وهي عبارة عن ثالث موقع متوضع في كهف. وهناك موقع باليجاورا Palegawra في نفس المنطقة ولكن ربما كان هذا الموقع أحدث عهداً. وتُظهر نتائج فحوص عظام الحيوانات التي وجدت في هذا الموقع أنه أثناء ذلك الزمن الواقع تماماً قبل تلك التغيرات الاجتماعية الاقتصادية المدعوة الآن بثورة العصر الحجري الحديث، لقد أصبح الانسان الآن يتغذى عن طريق صيد الحيوانات اللبونة الكبيرة الحجم وعلى مقياس واسع وكانت فرائسه تشمل الخيول البرية والخنازير والأغنام والماعز والغزلان والأيائل. وفي هذا الزمن عرف الإنسان استعمال النار وهكذا لم يعد يأكل اللحم نيئاً.

وحتى حين تظهر تحاليل الكربون ١٤ أو تظهر أية تقنيات أخرى أو دلالات أخرى أكثر وضوحاً حول تحديد الزمن، فإننا نقرر أن أقدم فترة حدث فيها الاستيطان البشري في تلك الكهوف المذكورة آنفاً وبثقة، هي أزمنة تزيد على

---

١ – العهد الأوريجانسي والموستيري: يعود للعهد الموستري ويدل على فترة من ثقافة العصر الحجري القديم وسمي باسم مغارة وجدت في فرنسا على ضفاف نهر Veseri. وتدل هذه الفترة على نهاية عنصر النياندرتال في العالم القديم (المترجم).

ألوف السنين. ومن الممكن تحديد التاريخ التقريبي لوجود تلك المجتمعات البشرية المتمثلة في تلك المواقع بأنه عام ١٠،٠٠٠ ق.م.

هذا وإن الانتقال إلى الاقتصاد المؤسس على زراعة وجني المحاصيل الزراعية وخصوصاً الحبوب مع ما تبعه من تدجين الحيوانات لابد أنه قد بدأ في تلك الفترة وذلك طبقاً لما يمكن أن نحكم به بناءً على الشواهد الحاضرة في منطقة الشرق الأدنى وذلك في الألف الثامن ق.م في المنطقة الواقعة ما بين فلسطين وسلسلة جبال زاغروس Zagros.

ولكن وبعد انحسار كتل الثلوج عن أعالي المنطقة القطبية الشمالية والذي حدث في نهاية العصر الجليدي الأخير مسبباً تحرك رياح المحيط الأطلسي الماطرة شمالاً مما سبب الجفاف في منطقة الشرق الأدنى بشكل متزايد. وهكذا نما وكثر القمح والشعير، ووجدت عندها الأجيال المتوحشة للكلاب والماعز والأغنام والمواشي والخنازير.

وهكذا أجبر الإنسان الذي كان يعيش في تلك المنطقة أن يعمل في إنتاج مواد الطعام حفظاً لبقائه. فانحدر من المناطق الجبلية تدريجياً حيث أصبحت النباتات البرية الصالحة للأكل نادرة نوعاً ما. وكذلك لم تعد الطرائد التي كان يصطادها كافية لقوته حسب عملية جمع الطعام البسيطة السابقة. وكشأن جميع الثورات التالية، كان ذلك التغيير مؤلماً بالنسبة لأولئك المعنيين بالأمر. وقد انعكس هذا الوضع على تلك القصص الخرافية التي كانت تُندد بفقدان ذلك العصر الذهبي، ومن أهم تلك القصص، قصة العهد القديم في التوراة التي تتحدث عن طرد آدم وحواء من جنة عدن حين اضطر الإنسان الذي كانت جميع المخلوقات والثمرات والأشجار مسخرة لأمره ولخدمته وإطعامه، عندها أصبح ذلك الإنسان عاجزاً ومضطراً لتناول الخبز فحسب ولكن من عرق جبينه. لقد بلغت فترة ما يدعى بثورة العصر الحجري الحديث عدة ألوف من السنين.

وبالنسبة للشرق الأدنى حيث بدأت هذه الثورة، نستطيع أن نلملم معلوماتنا من ذلك العدد الكبير من المواقع الممتدة من فلسطين حتى بلاد فارسومن الأناضول حتى جنوب بلاد العرب. وإذا اعتبرنا طبيعة حب التغيير في الإنسان، فإن هذه المواقع لابد وأنها لم تعد عبارة عن كهوف تصلح للعيش (مع أن إنسان العصر الحجري الحديث وربما ظل مستمراً في استخدام الكهوف في بعض الظروف كما يفعل بعض الأكراد في نفس المنطقة في هذه الأيام). لكن وبالنسبة للمواقع المكشوفة: ابتداءً من مجموعات أوضاعهم المفضلة وميل الناس للمحافظة على القديم، فقد حدث أن كانت بعض هذه المواقع مأهولة بالسكان لعدة مئات أو ألوف السنوات. وقد ظل الحال على هذا المنوال حتى الأزمنة التاريخية في بعض الأحوال وحتى الأزمنة الحاضرة في أكثر من موقع، بحيث أن أصبحت بقايا العصر الحجري المتأخر تشكل الطبقة السفلى من ركام مرموق يحتوي على أنقاض تدل على وجود استيطان بشري. وإن مثل هذا الركام المؤلف من بقايا تعود إلى فترات مختلفة من الاحتلال داخل طبقات أرضية متراكمة بعضها فوق بعض وتدعى هذه طبقاً للغة المستعملة في تلك المناطق **بالتل**. ونظراً لصعوبة وكثرة تكاليف فتح تل رئيس للوصول إلى عمق مناطق العصر الحجري الحديث لذلك فإن القسم الأعظم من المعلومات المتوقعة حتى الآن قد أتت من مواقع غير مسكونة خلال الأزمنة التاريخية.

ولكن هناك استثناء فريد لهذه القاعدة وهو موقع بلدة أريحا (وتدعى تل السلطان) التي تعتبر إحدى أقدم المستوطنات في العصر الحجري الحديث. أي إذا سلمنا بالتواريخ التي افترضها القائمون بالحفريات من رجال علم الآثار، مع أن هناك بعض من يشكون بصحة أقوال هؤلاء. ولكن وطبقاً لأقوال القائمين بالحفريات (وعلى أساس تحاليل الكربون ١٤ المُشع المأخوذة من عينتين) فقد تقرر أن تاريخ ذلك الموقع يعود إلى عام ٧٥٠٠ق.م وأن ذلك الموقع قد توسع وأصبح يشكل بلدة صغيرة حوالي عام ٦٨٠٠ق.م. تبلغ مساحتها حوالي عشرة فدادين وعدد سكانها حوالي ألفي نسمة وكانت بيوتها مبنية من آجر الطين وأرضيات البيوت من الطين المطروق وربما كانت السقوف مصنوعة من أغصان الأشجار المطلية بالطين. وكان

الموتى يدفنون تحت أرض الغرفة في طقوس مهيبة. وكانت رؤوس الموتى تقطع وتحفظ ملامحها في قوالب من الجص (ولا تزال هذه العادة مستعملة في بعض أجزاء ماليزيا حتى الأزمنة الحديثة مع أنه ليس هناك من علاقة مباشرة بين البلدين) وبعد ذلك كان الرأس يدفن بشكل منفصل عن الجثة.

وبعد انتشار الزراعة وجني المحاصيل المستعملة للطعام وبعد تدجين الحيوانات ووجود الأراضي غير المحدودة، عندها أصبحت هناك إمكانية زيادة عدد السكان بشكل مرموق فانتشرت المجتمعات القروية، حيث اتحدت العائلات وتعاونت في عملية إنتاج مواد الطعام والدفاع عن النفس. وهكذا فإن تأمين الحصول على مواد الطعام سبب طبعاً حدوث بعض أوقات الفراغ التي كان لها نتائج عميقة بالنسبة للأنشطة الإنسانية التالية فقد ملأ الإنسان هذا الفراغ بإحداث بعض أنواع التخصص ولقد ظهر هناك مظهران من مظاهر هذا التخصص، كان أحدهما التطور في الفنون من جهة وظهور مجموعات اجتماعية محترفة تهتم بالتجاوب الديني للإنسان مع النموذج المفروض في الحياة من قبل الدورة الزراعية من جهة أخرى.

وهناك شاهد على بداية أعمال حصاد الحبوب وقد أتى من منطقة جبل الكرمل من بعض مواقع الكهوف هناك وذلك من حوالي زمن نهاية العصر الحجري. فقد وجدت هناك بعض المناجل المؤلفة من أسنان من الصوان موضوعة في مقبض حجري استعمله شعب يدعى النطوفيون. وتدل تلك الشفرات الصوانية على استعمالها لقص سيقان الحبوب ومن الممكن أن يشمل هذا قص سيقان القمح والشعير البري الموجود في المنطقة وليس من الضروري أن يكون إشارة إلى بداية مواسم الحصاد الحقيقية. ومن المؤكد أنه لم يكن لدى هؤلاء النطوفيين حيوانات مدجنة مستعملة للطعام مع أن هناك شاهداً على أن هؤلاء النطوفيين قد دجنوا الكلاب.

وما لم تثبت نهائياً تلك التواريخ القديمة التي تزعم وجود الاستيطان في العصر الحجري الحديث في أريحا فإن أقدم شاهد على حدوث تغيرات أكيدة ابتداءً من التغير من اقتصاد جمع مواد الطعام حتى عملية إنتاج مواد الطعام إنما قد أتت من

موقع مفتوح مساحته حوالي فدانين وهو موجود في كارم شاهير Karim Shahir (إلى الشرق من كركوك) وكان مسكوناً لوقت قصير حوالي عام ٧٠٠٠-٦٠٠٠ق.م. وكانت نصف العظام التي وجدت من أنواع من الماعز والغنم والخنازير وبعض الخيول. التي إذا لم تكن قد دُجنت بعد فإنها سوف تُدجن بعد وقت قصير. وبالإضافة إلى شفرات المناجل وجدت أيضاً مجارش أي مطاحن يدوية ومعازق أي مجارف يدوية مما يدل على وجود بعض العمليات الزراعية مع أنه لم يكتشف وجود حبوب في ذلك الموقع. وقد وجدت بعض البلاطات الحجرية وحجارة تصلح لعمل المواقد وكما يبدو أنه قد حُفرت أماكن لخزن المواد. ولم يؤكد بعد وجود بعض التفاصيل حول الشؤون الزراعية ولم توجد أي تفاصيل معمارية تدل على إنشاء نوع من البيوت توضع فيها هذه الأشياء. يشكل موقع كارم شاهير مرحلة انتقالية مبكرة، إلا أننا لا نستطيع اعتبار هذا الموقع قرية من قُرى العصر الحجري الحديث. فالحقيقة أنه ليس لدينا ما يُثبت أن الاستيطان فيها لم يكن أكثر من استيطان مؤقت، موسمي. ولكن هناك ثغرة ينبغي ملؤها في قضية تتابع الثقافات ومضي الزمن ما بين هذا الموقع وموقع جارمو (وهو واقع شرقي كركوك أيضاً) والذي حُدد تاريخه عن طريق تحليل الكربون ١٥ وذلك بعام ٥٠٠٠ق.م وبعد ذلك بقليل.

هذا وإن أولئك الذين قبلوا تاريخ ٧٥٠٠ق.م كمؤشر صحيح بالنسبة للاستيطان في أريحا سوف يقبلون تاريخ جارمو وهو ٦٠٠٠ق.م (رغم تقارير تحاليل الكربون ١٤). هذا وقد وجدت في هذا الموقع منازل مبنية بشكل خطوط مستقيمة تتألف من غرف عديدة وكانت الجدران وأراضي الغرف مصنوعة من الصلصال المضغوط وكانت أسس الأبنية مصنوعة من الحجر. كما وجدت أفران مصنوعة من الصلصال وهي ذات مداخن من الصلصال أيضاً. وكان هناك تماثيل صغيرة من الصلصال (ومعظمها غير مشوي) تُمثل بعض الحيوانات وبصورة خاصة الآلهة الأم. ويبدو أن تماثيل الأم الكثيرة العدد كانت هي الشكل الرئيسي في ديانة العصر الحجري الحديث، حيث كان الخصب والوفرة يمثلان المكانة الأولى بالنسبة

للمجتمع. وبالإضافة إلى ذلك وجدت هناك طاسات حجرية ناعمة الملمس مصنوعة من حجر الكلس وكذلك بعض أدوات الزينة (بشكل أساور وخرز بصورة رئيسية) وكذلك بعض الأدوات الصوانية الصغيرة الحجم وهي من حجم صناعات العصر الحجري الحديث. ولكن لم يوجد الفخار إلا في المراحل المتأخرة من استيطان جارمو. وإن غياب أي أثر للمراحل الأولى من صناعة الفخار في هذا المكان ما هو إلا دحض لأي افتراض أن هذا التطور الهام أي صناعة الفخار قد بدأ هنا في جارمو، ولكن هذا الشاهد السلبي ليس شاملاً لأن علينا أن نتذكر أن المراحل الأولى لصناعة الفخار تتألف من وجود بطانة من الصلصال في السلال التي كان يوضع فيها الفتيل عند الإضاءة ومن الصعب أن تنجو هذه السلال من عاديات الزمن.

أما عظام الحيوانات التي وجدت في جارمو فهناك حوالي ٩٠٪ تمثل حيوانات مدجنة أو قابلة للتدجين مثلاً الماعز المدجن (وهو متميز عن الماعز البري الجبلي بأشكال قرونه) وكذلك الأغنام والخنازير والمواشي والخيول. ولقد قيل إنه نظراً لبداية العهد الزراعي ينبغي عند ذلك أن يكون الثور قد استعمل لجر المحراث في جارمو. ولكن هناك رأي معاكس وهو أن هناك قد وجد على بعض الأختام الأسطوانية التي كانت تعود ألفي عام متأخرة صُور رجال من البشر وهم يجرون المحراث البدائي وعلى الأقل نوعان من الحبوب قد استعملت في جارمو وهي (حبوب Einkorn) والتي تمت معالجتها بالكربون وأحد أجداد القمح Emmer فضلا عن نوع من البازيلاء البرية وقد استنتج وجود الحبوب من وجود المجارش وهي المستعملة في جرش وطحن الحبوب وكذلك المهاون وبعض الصواني المستعملة للعجين أما الشعير الذي أصبح ذا أهمية فيما بعد في منطقة ما بين النهرين، إلا أنه لم يظهر في جارمو. ومن الممكن أن يكون قد ظهر استعماله فيما بعد بشكل نوع من الأعشاب النامية في حقول القمح شأنه شأن الشوفان والجودار في فترات متأخرة.

وكانت الحبوب المستعملة في جارمو تُحمص تحميصاً خفيفاً داخل الأفران. وبعد ذلك تُطحن وتؤكل بشكل عصيده توضع على هيئة عجين بشكل بسكويت. هذا وقد صُنعت البيرة من تخمر العصيدة الحامضة الطعم. ولا شك أن بقايا جارمو

هي بقايا قرية قديمة فقد كان هناك تتابع من ثمانية مستويات من الأبنية مما يدل على دوام السكن فيها خلال حوالي ثمانية أجيال على الأقل. وهناك موقع آخر في العراق يعود إلى العصر الحجري الحديث وهو موقع مولافا Mulaffa ما بين الموصل واربيل وهو يزيد في بدائيته عن جارمو وخصوصاً في البقايا الثقافية المادية.

ومن المرجح أنه أقدم عهداً ولكنه يمثل موقع قرية كاملة الأوصاف. موقع (جردعَلي اَغا) Gird Ali Agha إلى الشمال من **أربيل** وهو أحدث عهداً من جارمو ولكنه لم يُظهر أيَّة صِلة واضحة مع أول المراحل الثقافية المعروفة وهي موقع حسونة Hassuna .

وما بين مرحلة التطور البشري التي تمثلها جارمو والحضارة المتقدمة نسبياً والتي يرجع تاريخها إلى حوالي بداية الألف الثالث ق.م، يجد المرء تقدماً تقنياً مرموقاً بالنسبة لنواح عدة من الأنشطة. وهناك بعض علماء الآثار الذين يعتنقون وجهة النظر التي مفادها أنه ليس من الممكن ضغط التطورات الواسعة والشاملة بحيث تشمل حوالي ألفي عام على أكثر تقدير. ويقول هؤلاء إنه إذا كان توقيت الكربون ١٤ للاستيطان في جارمو أمراً لا شك فيه، فإن المستوطنة نفسها لابد أنها كانت عبارة عن موضع خلفي منعزل أو في حالة ركود بالنسبة لمجرى التطورات الرئيسية التي تمثل مرحلة ثقافية قد بطلت وزالت قبل حوالي ألف عام بالنسبة للأماكن الأخرى. ومقابل وجهة النظر هذه هناك ظاهرة وجود الزجاج البركاني في جارمو حيث تعتبر الأناضول المصدر الأقرب لهذا الحجر وهي على بعد مئات من الأميال عن جارمو وهكذا نستنتج أنه كان هناك أنواع من العلاقات التجارية مع العالم الخارجي، مما يستبعد فكرة الانعزال الثقافي في مجالات أخرى. وهكذا يُضطر الإنسان إلى الاستنتاج أن التطورات الثقافية كانت أسرع مما كان يُفترض حتى الآن.

فإذا تحولنا من جارمو نجد أن أقدم نوع من الاستيطان في ذلك المجرى الرئيسي للتطور الثقافي في العراق في فترة ما قبل التاريخ هو ما يدعى موقع حسونة Hassuna وهو يحمل اسم نفس الموقع إلى الغرب من نهر دجلة قريباً من الموصل.

وبالإضافة إلى ذلك الموقع الذي سميت تلك الحضارة باسمه فقد وجدت بعض المستوطنات التي تشكل جزءاً من نفس تلك المرحلة المبكرة وهي مستوطنات مطره Matarrah (جنوب كركوك) ونينوى Nineveh وعرياشيه Arpachiyah وغيرها.

هذا ومن الممكن تمييز عدة وجوه من ثقافة حسونه إذ إنه قد تطورت أول مستوطنة في حسونة نفسها بعد المراحل الأولى لإنتاج مواد الطعام. ويظهر هذا من وجود المجاريش (جمع مجرشة) وهي الأداة المستعملة لجرش وطحن الحبوب وبعض الأدوات الحجرية مثلاً المجارف ثم وجود الفخار لصنع الجرار المستخدمة لخزن الذرة. ولكن هذه المنطقة بقيت محافظة على هويتها الحجرية الحديثة. وما عدا استيرادها لأحجار الزجاج البركاني Obsidian فقد بقيت عبارة عن وحدة اقتصادية منغلقة تعيل نفسها بنفسها وفوق ذلك فلا تعتبر من عهد العصر الحجري الحديث فحسب، بل من العهد الحجري الحديث المبكر وذلك نظراً لوجود الكتل الصلصالية المستعملة في المقلاع مما يدل على أن الصيد لا يزال يلعب دوراً رئيسياً في تأمين حاجات الطعام.

وتدل الأدوات المكتشفة أن الأشكال المستخلصة كانت تلك المعروفة باسم ثقافة الفأس والمجرفة. ونظراً لأن تلك العملية تنهك التربة بسرعة مما يجبر السكان على تغيير أمكنتهم وإقامتهم من وقت لآخر. لهذا فمن المحتمل أن تكون مجتمعات حسونه القديمة مجتمعات بَداوة إلى حد ما.

وبعد هذا الطور الأول من الاحتلال المؤقت في مواقع حسونة تبع ذلك وقت طويل من الاحتلال المستمر مما يوحي بأن بعض الأساليب الزراعية الفعالة قد بدأت واستعملت وخصوصاً فترة إراحة الأرض وتركها من غير زرع رغبة في إراحتها مما يمنع التخريب السريع لخصوبة الأرض. ولقد تبع ذلك بعض التطورات في بناء البيوت الشرقية النموذجية. فأصبح البيت يتألف من عدد من الغرف المتجمعة حول باحة مركزية. ولا تزال هناك بيوت من هذا النوع موجودة في العراق حتى الآن. وفي هذه

الفترة صُنعت الأحجار المجنوفة التي كانت الأبواب تدور على محورها. وكذلك فقد وجدت بعض الأفران الصلصالية (الفخارية) لصنع الخبز.

وبالنسبة لحصاد نبات الذرة فقد وجدت هناك مناجل تتألف من رقائق من الصوان متوضعة في قواعد خشبية وملتصقة بواسطة البيتومين. ولكن لم تظهر في هذه الفترة أية استعمالات للمعادن بعد.

ولقد ظهرت أصول الفخار المزين في فترة حسونة هذه، ولم يكن هذا الفخار ضرورياً لأسباب جمالية فحسب، بل لأنها كانت تؤلف السابقة المناسبة للثقافة المرتبطة بها. هذا وقد وجدت أوان فخارية مشابهة لأواني حسونة القديمة المزينة في عموق Amuq في سوريا ومرسيين على سواحل كليكية مما يدل أن مستوطنات حسونة ومُنذ بدايتها كانت جزءاً من تلك المجموعة الثقافية الواسعة الانتشار. وقد وجدت بعض أدوات شبيهة في بلاد فارس وبالتالي الصلات مع إيران تصبح موضوعاً للنقاش.

ولقد تطورت التجارة حقاً خلال هذه الفترة بالإضافة إلى الزجاج البركاني Obsidan، كما استوردت عدة أحجار كريمة أخرى مثل الفيروز والمكيت المستعملة في عمل الخرز والتعاويذ ولا شك أن هذه المواد كانت ترافقها بعض البضائع القابلة للتلف من أنواع تغيب عن ملاحظة علماء الآثار، وأما القضايا الدينية بالنسبة لحسونه فهي تنعكس بوجود بعض التماثيل الصلصالية الصغيرة فضلاً عن الجرار التي كان يُدفن بها الأطفال وهم الضحايا البشرية التي كانت توضع في أسس البنايات، وبالنسبة لوجود بعض الأواني المرافقة للمدفونين والتي من الممكن أنها كانت تحتوي بعض الأطعمة والمياه، ربما تشير من طرف خفي إلى اعتقاد غامض بالحياة بعد الموت.

وتعاصر الجزء الأخير من الثقافة الحسونية بعض الأدوات الفخارية التي تحمل إشارات هندسية وصور حيوانات وهذه تدعى فخار سمارة Samarra وقد أخذ هذا الاسم من الموقع الشهير في منتصف نهر دجلة والذي اكتشف عام ١٩١١ وقد عرف

ذلك الفخار منذ ذلك الوقت في مواقع أخرى قليلة في منتصف منطقة نهر الفرات وفي الشمال بما فيها نينوى (المستوى ٢ ب) ولا يزال هناك كثير من الشك بالنسبة لموضعها التاريخي وبالنسبة لتتابع الثقافات، بينما هناك تضارب في الآراء بين علماء الآثار بالنسبة لما يشمله فخار سماره. فلا يُعلم إذا كان هذا الفخار عائداً إلى بعض المظاهر المتميزة من نواحي نشاط علم الهندسة المعمارية أو هندسة المعادن.

هذا ويلاحظ بريدوود R. J. Braidwood أن فخار سمارة لا يمثل أية ثقافة ولا حتى خليطاً منقى من الثقافات، لأنه يقول إن فخار سمارة ما هو إلا فجر وأسلوب من أساليب الفخار المزخرف. ومع هذه التحفظات يمكننا أن نذكر أن هناك بعض علماء الآثار الذين يرون بعض العلاقة ما بين ثقافة فخار سمارة والحضارة الفارسية .

وفي المقام الأول هناك عوامل مشتركة ما بين زخارف فخار سمارة وبين بعض الفخار الموجود في بعض المواقع الإيرانية وكذلك فمع أن الشواهد المأخوذة من طقوس الدفن قليلة وطفيفة إلا أنها تؤيد النظرية القائلة بوجود علاقة ما بين بلاد فارس والشعوب المتصلة بفخار سمارة ويظهر أن هؤلاء كانوا يدفنون موتاهم في وضع الاستلقاء أي على الظهر. وقد مارس هذه العادة الشعب الذي كان ينتمي إلى ثقافة عبيد Ubaid ومن المعروف أنهم كانوا ينتمون إلى أصل فارسي. وهناك رأي مخالف يدعي عدم وجود أيَّة صلة ما بين ثقافتي سماره وعبيد. فقد كان بناؤو الأسوار في سمارة يستخدمون قطعاً كبيرة من الطوب غير المشوى وهذا مخالف للأبنية التي تقود إلى ثقافات ما قبل التاريخ. وبخصوص ديانة شعب سماره فإن كل ما نستطيع قوله هو أنه شأن جميع ثقافات ما قبل التاريخ فإن هذه الشواهد القليلة النادرة تدل على أن تلك الديانات كانت مهتمة بطقوس الخصب ذات العلاقة بالإلهة الأم المستغرقة في قضايا السحر.

وهناك نوع جديد وجميل من الفخار الأصفر البرتقالي ذي الزخارف باللون الأحمر والأبيض والأسود وهذا يشير إلى دخول ثقافة حلف. وقد سُميت هذه الثقافة باسم حلف على نهر الخابور حيث وُجدت. ويبدو أنه كان من الواضح أن الشعب الذي صنع ذلك الفخار البديع قد جلب بعض التحسينات الأخرى والتقنيات. فقد

استعملت أعداد أكثر من أنواع الحبوب والحيوانات المدجنة. بينما نرى أن وجود المغازل هو دلالة على وجود صناعة الأقمشة. وبينما بقيت الحجارة المواد الطبيعية لصناعة الأدوات، إلا أنه قد ظهر الآن الخرز والدبابيس وحتى بعض الأدوات المصنوعة من النحاس. هذا وإن البراعة التي يتم بها صُنع الفخار يؤكد وجود الآتون، حيث يمكن الوصول إلى درجات حرارة عالية جداً. والحقيقة أنه قد وجدت بقايا تلك الأتونات في عرباشية وكركميش. ومن الممكن وبالنظر إلى تلك المهارة التقنية اللازمة لصنع تلك الأتونات أن صانع الفخار كان من الحرفيين المتمرنين تمريناً كافياً.

إنه ومن المحتمل أن يعود تاريخ اختراع دولاب الخزاف إلى فترة حلف ويدل على هذا تلك الحقيقة التي مفادها أن ما يظهر بأنه عربة ما هو إلا إحدى الرسوم المدهونة على إحدى مزهريات حلف.

وبالنسبة إلى الدين فقد كان هناك بالتأكيد نوع من الاعتقاد بالحياة الأخرى نظراً لوجود بعض الأواني المدفونة مع الميت وكذلك الزخارف والأدوات التي كان يُقصد بها استعمال الميت لها في الدار الآخرة. وأما التماثيل الصغيرة الخاصة بالآلهة فهي شاهد على ممارسة طقوس الخصب.

وهناك شواهد بسيطة تدل على وجود التجارة ما بين تلك المجتمعات في تلك الفترة فقد كانت تلك المجتمعات التي كانت تعود إلى ثقافة حلف، مشغولة في استخراج الزجاج البركاني Obsidian في موقع قرب بحيرة فان. وكان هذا الزجاج البركاني يستعمل بصورة واسعة في جميع قرى حلف. وفوق ذلك ففي إحدى مستوطنات حلف في تشاجار بازار Chagar Bazar على الخابور وجدت إحدى أصداف المحار تعود في أصلها إلى الخليج العربي. ففي قرى حلف التي من الممكن أن ندعوها الآن بلدات صغيرة هناك شوارع مبلطة. ولا يعرف إلا القليل عن التطورات في فن المعمار المنزلي. فهناك بعض الأبنية المرموقة ذات السقوف المقببة مع وجود حجرات مستطيلة ملتصقة وهي تدعى ثوليو Tholio. ولكن ومهما كانت فوائد ووظائف تلك البيوت إلا أنه قلما يجوز لنا وصفها بالبيوت الخاصة. فالبيوت المدعوة

بثولوي Tholoi هي ذات وضع معماري خاص، إذ يظهر أن شعب حلف قد أجاد تشييد القباب. وباستثناء تيب جاورا Tepe Gawra ، حيث استمرت عملية تشييد أبنية ما يدعى بفترة عُبيد إلا أنها لم تعد تستعمل بعد فترة حلف. ونظراً لاستمرار النظرة المحافظة بالنسبة للشؤون الدينية، فإن هذا يعني أن هناك دلاله على أن هذه الأبنية كانت ذات أغراض علمانية أكثر منها دينية ومن الممكن أنه كان لها وظائف دينية. ولكن اختفاءها النهائي لا يمكن تفسيره إلا بالافتراض أنها كانت مرتبطة مع أحد الطقوس التي قد نبذها وتركها أحفاد شعب عبيد الذين عاشوا بعد ذلك. هذا وإن اختلاف شعب عبيد اختلافاً شديداً بالنسبة للقضايا الدينية عن أجدادهم إنما يظهر عندما نرى أنهم قد نبذوا في فنونهم جميع آثار تمثيل البشر أو الحيوانات، مع أن ذلك التمثيل كان موجوداً بشكل واضح في الثقافات الماضية التي سبقتهم. ربما ظهرت ثقافة حلف في بلاد آشور حيث من الممكن تتبعها خلال عدد من المراحل، ففي أكمل وأقصى مداها لقد وصلت تلك الثقافة إلى سواحل سوريا وكليكيا وارمينيا وجنوباً حتى سمارة ولكن هناك حقيقة مفادها أن تلك الثقافة قد تشكلت واختلفت مع بعض المظاهر من ثقافات أخرى، إلا أن هذه الحقيقة تظهر أن ليس هناك أية واحدة من هؤلاء مرشحة لتكون المكان الأصلي لمنشأ هذه الثقافة.

وهناك شاهد سلبي بالنسبة لمكان منشأ وأصل شعب حلف يشير إلى أنه لم يكتشف أي أثر لهذا الشعب في إيران. ولكن ومع ذلك فإن هذه القضية تثير مجالاً خصباً للتخمين فلم يكن شعب حلف شعباً غازياً مهدداً للثقافات السابقة، فقد كان توزيع ثقافتهم كما هو معلوم اليوم مشابهاً لتوزيع ثقافة شعب حسونة وهذا يدل على أن العلاقات ما بين المستوطنات عبر تلك المنطقة لم تتأثر سلباً بوصول هذا الشعب إلى تلك المنطقة.

وحوالي هذه الفترة بدأ استيطان جنوب العراق. وهناك شواهد متوفرة تعود إلى فترة ما قبل التاريخ تدل على وجود عدد من شرائح السكان تتميز بما خلفته من الآثار مثل الفخار وأساليب الدفن وأنظمة البناء. وعندما يُنير لنا التاريخ بعد وقت

قصير من بداية الألف الثالث ق.م بعض الغموض عندها من الممكن أن نُمَيز ثلاثة عناصر على الأقل من العناصر العرقية والثقافية في بابل.

وكان المتصدر في الأهمية من وجهة نظر التطورات الأخيرة هم السومريون الذين يُعزى إليهم أصول حضارة ما بين النهرين بشكل عام. وكذلك كان هناك الساميون الذين زاد نفوذهم العرقي والثقافي باستمرار، وذلك أما بشكل سلمي أو أحياناً مجرى مُتفجراً بشكل عنيف بالنسبة لأولئك الساميين الآتين من الغرب. وبالإضافة إلى ذلك هناك عنصر ثالث يستدل على وجوده من إن أسماء بعض المدن السومرية تنتمي إلى لغة لا هي بالسومرية ولا هي بالسامية. بينما هناك عدد لا بأس به من الكلمات المستعملة في اللغة السومرية ولكنها ليست ذات أصل سومري ولا أصل سامي. ولهذا فقد أصبح هناك نوع من التحدي عند محاولة معرفة هوية هذه المجموعات المختلفة أو إلحاقها بتلك المجموعات المختلفة من فترة ما قبل التاريخ والتي كان من الممكن تقصي آثارها عند فحص الفخار في جنوب العراق ابتداءً من الألف الرابع. ولم يتوصل المؤرخون في الوقت الحاضر إلى تحديد استنتاجات مقبولة حول هذه القضية.

وحتى أزمنة حديثة كان من المعتقد أن منطقة جنوب العراق جميعها وحتى شمال بغداد قد تشكلت منذ العصر الحجري القديم وذلك من طبقات الطمي السنوية التي يجلبها ويقذفها نهرا دجلة والفرات. وأما المنطقة في أقصى الجنوب ابتداءً من أور وأريدو إلى الجنوب الشرقي فقد كان من المعتقد أنها قد أصبحت آهلة بالسكان في العصر الحجري الحديث فحسب. ولكن بعض الجيولوجيين يخالفون هذا الرأي. فهم يقولون إن حوض دجلة والفرات يتعرض للانخفاض بنفس النسبة تقريباً التي تتعرض لها طبقات الطمي هناك. ولكن خلال فترة البلاستوسيه تراجعت هذه الطبقات إلى منطقة أبعد من الخليج الفارسي. فقد امتدت باتجاه شمالي غربي بعد أن غطت تلك المنطقة التي كانت أرضاً يابسة. ومهما كان الأمر، فإن استيطان جنوب العراق كان متأخراً نسبياً بالمقارنة مع الأجزاء الأخرى من الشرق الأدنى. هذا وليس هناك أي أثر لاستيطان في عهد العصر الحجري الحديث. ولقد وجدت

مكتشفات تعود إلى العصر الحجري القديم في قعر بحيرة قديمة قرب كربلاء. ولكن هذه القطعة ربما تكون قد جرفتها مياه نهري دجلة والفرات في الأزمنة القديمة. ولقد كان إنسان العصر الحجري يُفضل المناطق الجبلية حيث تقدم له الكهوف الطبيعية للمأوى في جوار المراعي، حيث من الممكن أن يجد الحيوانات والطرائد. بينما لم يتوغل إنسان العصر الحجري الحديث في السهول ذات المستنقعات سوى في المناطق التي كان هطول المطر فيها وافياً وكافياً للأغراض الزراعية. ولا يزال هناك نقاط خلاف حول إمكانية أو عدم إمكانية ظاهرة زيادة عدد السكان في الشمال في التأثير على استيطان منطقة بابل وذلك باضطرار بعض الفلاحين الشماليين على الانتقال إلى أماكن أبعد في تلك المنطقة. ويعتقد بعض الثقات أنه من الأكثر احتمالاً أن الهجرات الأصلية قد أتت من بلاد فارسحيث كانت الأحوال المناخية وحتى الألف الرابع ق.م. تقترب من الأحوال في جنوب منطقة ما بين النهرين أكثر مما هو الحال الآن. فلم تكن بلاد فارسفي ذلك الوقت قد تحولت إلى منطقة صحراوية مالحة جافة بل كان فيها أنهار داخلية لا تصب في البحر وهي تؤلف مستنقعات ليست بعيدة الشبه عن مستنقعات جنوب العراق ولا تزال.

إن أقدم مستوطنة واقعة جنوب بابل في موقع دعاه السومريون بأسم اريدو Eridu بعد حوالي ألف عام بعد (أنما) تتوافق زمنياً مع فترة حلف وسمارة إلى الشمال. ولقد كشف العاملون بالحفريات في أريدو تسع عشرة طبقة أرضية حدث بها استيطان قديم. وقد وجدوا أن أقدم طبقة وهي التاسعة عشرة (كانت مبنية على أرض بكر. وبالنسبة للفخار وفن العمارة فقد اعتبروا الطبقات ما بين الطبقة التاسعة عشرة والخامسة عشرة بأنها تمثل وجهاً واحداً من الوجوه الثقافية التي سموها أريدو.

إن المصدر الأصلي لمستوطني أريدو الأوائل قد بقي مفتوحاً للمناقشة فإذا كانوا كما يقول البعض حقيقة من السومرين الصميمين، فإن التقاليد السومرية تدل على أنهم قد أتوا من المنطقة الجنوبية الشرقية فليس هناك (في الوقت الحاضر على

الأقل) أية شهادة أثرية تدعم وجهة النظر هذه مع أن هناك من يدعي أن هناك بقايا حضارة قديمة قد توضحت من الصور المأخوذة من الجو أسفل النهاية الشمالية للخليج العربي وقد تكون هذه هي الحلقة المفقودة. وهناك بعض الثقات -كما ذكرنا سابقاً- من الذين يربطون شعب أريدو بمرتفعات عيلام بينما يعتبرها البعض الآخر على أساس المصاهرات والصفات الروحية التي يظهرها الفخار في حلف وسمارة يعتبرونها هجرات جنوبية لثقافة فلاحي حلف وسمارة.

ولقد اعتبر الأستاذ غوردون تشايلد Gordon Childe أن ثقافة أريدو هي أقدم شكل من أشكال حضارة عُبيد التالية. ولقد حدثت أبحاث مُفصلة تفيد أن أساليب صنع الفخار، بالإضافة إلى العادات والتقاليد الدينية، تُظهر ذلك الاستمرار ابتداءً من أريدو حتى عُبيد، بحيث لم يعد هناك من ضرورة لإبراز أية فترة من الانقطاع بين الثقافتين.

ومن البداية نقول إن مستوطني أريدو قد أسسوا المجتمع دون شك، ولكن الأحوال المناخية لابد وأنها قد أجبرت هؤلاء القادمين الجدد أن يشتغلوا في عمليات تصريف المياه وصنع الأقنية وأعمال الري. وكان لهذه الأعمال نتائج باهرة وبالغة الأهمية نظراً لأنها جعلت من الضروري تعاون المجتمع والناس بشكل وحدات أكبر من وحدات القرية النموذجية في العصر الحجري الحديث. وهكذا فقد مهدوا الطريق لظهور تلك الدول - المدينة في الألف الثالث ق.م.

ولقد بنى مستوطنو أريدو القدماء بأنفسهم مزاراً صغيراً مصنوعاً من الطوب غير المشوي وهكذا اكتسبت تلك البقعة صفة من صفات القداسة فبنوا حولها اثني عشر معبداً في فترة ما قبل التاريخ وذلك على نفس الموقع. وفي الفترة التاريخية بنيت معابد أخرى على نفس الموقع.

وقد ظهرت ثقافة أخرى في عهد ما قبل التاريخ (أو كما يفضل البعض تجمعات ثقافية) في جنوب العراق. ولقد فُسرت هذه الكلمة بأشكال مختلفة منها أسم ثقافة حاجي محمد وجد فيه الفخار المتميز لهذه الثقافة. وقد تم تمييز هذه

الثقافة في عدد من المواقع الجنوبية ومن المحتمل أن تكون هذه الثقافة هي المرحلة المبكرة لظهور ثقافة عُبيد التي تلتها.

تؤلف ثقافة عُبيد وجهاً جديداً وهاماً بالنسبة لتاريخ منطقة ما بين النهرين الأصلي مع أن هذه الثقافة قد توسعت وبشكل مرموق ووصلت إلى الشمال حتى أعالي نهر دجلة والخابور حيث حلت محل ثقافة حلف ويظهر أنها وصلت إلى أوجها وتطورها في منطقة جنوب بابل.

وكانت هذه الثقافة عبارة عن اقتصاد فلاحي عالي الفعالية مؤسس على أساليب الري وقد استعملت المواد الخام الأكثر شيوعاً –أعني الصلصال- بانتظام لصنع بعض الأشياء مثل شفرات المناجل والمسامير والطوب. ولكن بقي الحجر مستعملاً في صنع الأدوات وبعض الأواني في قضايا مختصة بالدين حيث كانت هذه الأواني تستخدم في الطقوس الدينية. ولكن هناك سؤال مطروح وهو هل استعملت المعادن يا ترى؟ ولقد ظهرت أجوبة ووجهات نظر متناقضة ولكن ورغم وجود بعض الآراء التي تذكر أن الفؤوس المصنوعة من الصلصال المشوي إنما كانت نماذج لأدوات مصنوعة من النحاس والتي اختفت كلها بسبب التربة الرطبة. ولكن وجد الكثير من هذه الأدوات الصلصالية بأعداد كبيرة بحيث أصبح من المؤكد أن تلك الأدوات لم تكن عبارة عن نماذج بل كانت أدوات حقيقية. وهنا يمكننا القول أن شعب ثقافة عُبيد لم يتعرف على المعادن في مكان منشأه (الذي يعتقد أنه إيران) أو أنهم لم يستطيعوا تنظيم التجارة الضرورية للحصول على المعادن في أماكن المنشأ بعد أن هاجروا إلى وطنهم الجديد. ومع ذلك فإن الأدوات الصلصالية المشوية ربما ظهرت بشكل كافٍ لتنفيذ بعض الأغراض اللازمة لشعب عبيد وذلك لأن صلصال بابل البديع يصعب كسره حتى بالمطرقة.

يشار إلى دوام ثقافة عبيد بوجود ستة أو سبعة معابد متتالية في تلك الفترة في بلدة إيريدو ولكن إذا أردنا تحويل ذلك إلى فترة زمنية محددة لابد وأن نصطدم بعدة افتراضات. فالأبنية المصنوعة من الطين لابد بأنها تتشقق بسرعة وتنهار هذا وإن افتراض الأستاذ غوردون تشايلد بأن العُمر الوسطي لكل معبد هو قرن من الزمان

فلا شك أن هذا الافتراض مبالغ فيه. وذلك أنه حتى وبالنسبة للمعابد المشيدة في الألف الأول ق.م فإننا نجد أن بعض المعابد كانت تنهار خلال أربعين عاماً. وهكذا فإن إعطاء رقم ستمائة عام التي خصصها الأستاذ غوردون للزمن الذي استمرت فيه ثقافة عبيد من الضروري إنقاصه إلى النصف.

وفي بلدة إيريدو وجد المعبد الذي لا يزال متواجداً على الموقع الذي اختاره أوائل المستوطنين في ايريدو لم يكن المعبد سوى بناية مدعومة مبنية فوق منصة. وحول صحن المعبد المستطيل هناك بعض الغرف وهي متناسقة مع المعابد السومرية. وإذا أردنا الحكم عن طريق وجود بقايا عظام الأسماك في حرم المعبد في إيريدو حيث كانت التقدمات من الأسماك تقدم إلى الإله. هذا وإن تقديم الأسماك إلى الإله ما هو إلا دلالة على أهمية صيد السمك في الاقتصاد إما في ذلك الوقت أو في فترة أقدم. هذا وإن تقديم الأسماك يشير أيضاً إلى أن الإله إيريدو كان إلهاً مائياً في فترة عُبيد شأنه في الأزمنة التاريخية. وهذه إشارة إلى أن بعض مظاهر الثقافة السومرية المتأخرة كانت موجودة من قبل. والحقيقة أن تطورات المعابد بصورة عامة في زمن ثقافة عبيد تدل على أن أشكال المجتمع المتميزة في أواخر عهد سومر تؤكد أن الإله هو ملك الأرض وإن معبده هو بؤرة المجتمع. هذه المفاهيم قد بدأت بالظهور ووجدت فِعلاً.

لقد كان انتشار ثقافة (عُبيد) شمالاً سريعاً كما ابتدأ سريعاً وشاملاً. نظراً لأن فنون (حلف) قد انحسرت وبمرور الأيام اضمحلت وهي في أوج نشاطها. فقد اختفت بعض الصور الدينية من الفنون فجأة دون وجود فترة تدل على بدء الانحطاط. ومع ذلك فلم يُحذف أو يُلغَ وجود شعب حلف تماماً، نظراً لأنه وفي موقع تيب غاورا Tepe Gawra(قرب الموصل) وهو أحد الأماكن التي شوهد فيها بعض مظاهر التوسع الشمالي لثقافة عبيد، في هذا الموقع وجدت بعض أبنية الثولوي: Tholoi المتميزة لشعب حلف. وأيضاً ورغم غياب فنون عبيد بصورة عامة وهي المحصورة بصور البشر والحيوانات، إلا أنه كان هناك صور حيوانات وصور بشرية في الزخارف الفخارية في تيب غاورا وذلك في نهاية عصر عبيد.

وما عدا ما ذكر أعلاه فإن جميع آثار التماثيل البشرية والحيوانات في الزخارف الفخارية في فترة عبيد كانت مفقودة زمنياً ومكانياً.

هذا وهناك اقتراح بوجود نوع من التحريم بالنسبة لتمثيل التشابه البشري أو الحيواني. هذا وكان هناك اختلاف ما بين شعوب (حلف) و(عُبيد) بالنسبة لاستعمال التعاويذ والحجب والتماثيل الصغيرة التي تمثل الإله الأم والتي كانت شائعة في ثقافة (حلف) ومن مواقع (سمارة) ولكنها قليلة بل معدومة كلياً في مستويات (عُبيد) في (إيريدو) مع أنها قد شوهدت في بعض مواقع (عُبيد).

إن مثل هذه الحقائق التي تدل على وجود بعض الفروق الصارخة في المفاهيم الدينية وهي مضادة بشكل قوي لأي اقتراح يؤكد أن شعب عبيد الأصلي كانوا عبارة عن مهاجرين قادمين من ثقافة (حلف) و(سمارة).

ومع أن ثقافة (عُبيد) كانت تمثل أول حضارة موحدة شاملة لجميع منطقة ما بين النهرين والأراضي المحيطة بها مع وجود علاقات من الممكن تقصيها ابتداء من وادي الهندوس حتى مصر مع مجتمعات أخرى ذات نماذج متشابهة، إلا أن هذه الحضارة بقيت عبارة عن مجتمع فلاحي يعيش داخل قرى مبنية من الطوب غير المشوي. أما الحجارة فكانت نادرة جداً ولم تستعمل إلا لبناء بوابات الأبنية والبلاط والمواقد. هذا وقد وجدت مصارف للمياه مغطاة بالحجارة أيضاً.

لقد دلت القبور على المفاهيم الدينية لشعب (عُبيد) إذ كانت تجهيزات هذه القبور تعكس بعض المعتقدات بالنسبة للحياة الآخرة وكذلك التماثيل الصغيرة التي وجدت في القبور وكانت تلك التماثيل (ومعظمها تمثل الإناث) على نوعين فبعضها ذات رؤوس بشرية والأخرى كانت مشوشة ربما تعني الاعتقاد بوجود الشياطين.

كانت حضارة (عُبيد) هي المرحلة الأولى للتطورات في فترة ما قبل التاريخ التي يمكن اعتبارها كثقافة موحدة في جميع منطقة ما بين النهرين، إذ إن وجود الحضارات التي تبعتها تظهر بعض الفروق الظاهرة من التطورات التي حدثت في الشمال والجنوب. ويعتبر بعض الباحثين أن ثقافة شعب (عُبيد) هي أقدم شاهد على

وجود السومريين في الألف التالي. ولكن هناك صعوبة تعترض قبول هذا الرأي، وهي أن السومريين وكما نعرفهم لم يحتلوا أبداً أية منطقة تشمل ثقافة (عُبيد).

وفي جنوب العراق وهي منطقة سومر المتأخرة حدثت بعض التغيرات الثورية وهي نشوء المدن، وعند وصف هذه المرحلة علينا أن نمر مرور الكرام بالتطورات في الشمال. فقد كان الفضل في تجميع المجتمعات في الجنوب وتحويلها إلى مدن إنما يعود إلى وجود الأنهار، إذ إن السيطرة الفعلية والجمع ما بين المدن بشكل فعال إنما تحتاج إلى التعاون على مقياس واسع فلا تستطيع القرى المنفصلة عن بعضها تأمين ذلك.

ولقد حدثت تطورات مشابهة في حضارة منطقتي نهرين آخرين وهما نهر النيل ونهر الهندوس. ولكن هناك دلائل أثرية حديثة تظهر أن ثقافة ما بين النهرين قد سَبقت هاتين الثقافتين وأن بعض المظاهر التابعة للتقدم الحالي انتشرت من منطقة ما بين النهرين شرقاً وغرباً. والوجه الذي نحن بصدده المعروف باسم أوروك Uruk قد عُرف في (ورقة) Warka (التي كان اسمها القديم أوروك وهي إيرش Erech المذكورة في التوراة) وتلو Tello وهي لاغاش القديمة، والتي أصبحت يمثلها إيريدو، وأور، وتل أوكير Tell Uker (على بعد حوالي أربعين ميلا شمال بغداد) هذا وتعتبر (ورقة) Warka وهي الموقع الذي بفضله عرفت تلك الأوجه من المواقع الهامة بالنسبة للحفريات وذلك لسببين مختلفين: الأول بظهورها كمركز من مراكز الحضارة السومرية القديمة، وثانياً لقد كانت الحفريات هناك هي الحفريات المثالية في العراق (حين كانت أبحاث علم الآثار المعترف بها عبارة عن محاولة لاصطياد الكنوز وإضافتها إلى المتاحف ذات المظاهر الأثرية العلمية). ويعود الفضل في إتباع الأسلوب العلمي المثالي لعلم الآثار لبعض العلماء الألمان الذين عملوا واحداً بعد الآخر ونخص منهم بالذكر الدكتور هـ . لنتزن H. Lenzen.

وبالنسبة لحفريات علم الآثار تذكر طبقات الأرض بشكل عددي من الأعلى إلى الأسفل بحيث تمثل الأعداد السفلى الفترات المتأخرة والأعداد العليا تمثل الأحدث والأبكر. أما في (ورقة) Warka فإن أبكر الفترات وهي الطبقة ١٨ حتى

١٥ وهي تمثل فترة استيطان عُبيد (وبشكل أكثر دقة عُبيد واحد) وفي نهاية هذه الفترة عُرف استعمال الطوب المشوي للبناء ولكن ليس بصورة شاملة. أما الفخار في الطبقة ١٤ حتى ٤ (بعض العلماء يرسمون الخط وصولاً للرقم ٥ أو ٦) وهو يشكل مجموعة متناسقة بحيث تعتبر هذه الطبقة بشكلها الكلي ممثلة لفترة متميزة للتاريخ الأصيل لمنطقة ما بين النهرين وتدعى أوروك. ولكن لا يظهر أن فترة أوروك هذه تمثل وجود طبقة جديدة كلياً من السكان الذين أضيفوا إلى سكان عبيد نظراً لأن معابد أوروك المبكرة كانت مستمرة في اتباع التقاليد المعمارية السابقة لفترة عبيد. وفوق ذلك فإن الشواهد الآتية من (ورقة) نفسها تظهر أنه قد وجدت هناك طفرة. فقد ظهر الفخار النموذجي في فترة عبيد في الطبقات ١٢ - ٧ مع أنه لم يعد يحتل المركز الرئيسي، إذ إن هذا الفخار العبيدي المتأخر يشار إليه باسم عبيد رقم ٢ وكما تظهر شواهد إيريدو فإن اقدم المعابد من فترة أوروك كانت حسب تقاليد البناء المعروفة في عبيد السابقة وكانت تستعمل الطوب المجفف بالشمس. وبالتدريج تطورت معابد أوروك بالنسبة للحجم والعظمة والفخامة. ففي نهاية فترة أوروك أصبحت هذه المعابد من المظاهر الملفتة للنظر في منطقة ما بين النهرين فقد كانت ظاهرة للعيان من مسافات بعيدة عبر سهول سومر وهي تظهر كفخر عظمة وثروة إله المدينة. ولقد أضيفت الألوان إلى تلك المؤثرات المدهشة فقد زينت جدران وأعمدة المعابد في الطبقة السادسة المسامير من الصلصال وكانت رؤوسها مدهونة باللون الأحمر والأبيض أو الأسود في نماذج من الفسيفساء، ويظهر في أحد المعابد الواقع في الطبقة رقم (٥) بعض البدع الهامة فقد بُني هذا المعبد فوق أساسات من قطع من الحجر الكلسي على أرض من الصلصال المدكوك. وقد فسرت هذه الظاهرة بقدوم بعض الشعوب الجبلية المتمكنة من تقنيات الصناعات الحجرية. وهناك شاهد آخر يدل على تسرب أجنبي وذلك لأن فترة أوروك قد جلبت عدداً من البدع بما فيها أشكال جديدة من الأواني الفخارية وكذلك دولاب الخزاف والقوس والنشاب، ومع أن استعمال المعادن كان معروفاً لدى شعب وثقافة حلف، إلا أن المعادن لم تستعمل بصورة عامة حتى فترة أوروك فقد وجدت أدوات من

النحاس من الطبقة رقم (١١) فصاعداً. فإذا كانت هذه التغيرات قد حدثت بسبب التسربات الأجنبية فإن هذا يشير إلى عنصرين جديدين على الأقل. فالعنصر الرئيسي هو إعطاء اللون لفترة أوروك ككل. والعنصر الثاني وصول شعب جبلي ظهرت آثاره في بناء المعبد من الحجر الكلسي في الطبقة رقم (٥). وكذلك اختراع الكتابة في الطبقة ٤ أ ، ٤ ب ولكن اختلفت وجهات النظر بالنسبة لهذه القضية. فقد اقترح على أساس العلاقة ما بين فخار أوروك الجديد وبعض الأنواع التي وجدت في فلسطين وسورية. وإن العنصر العرقي الجديد كان عنصراً سامياً ولكن هذا الاستنتاج مع أنه لم يثبت بطلانه إنما يتجاوز الشاهد الحاضر، فالعنصر الجبلي ربما كان ذلك الشعب الذي عُرف فيما بعد باسم السومريين ولكن لم تثبت هذه الحقيقة نهائياً أيضاً.

إن الفترة التي تمثلها طبقة أوروك رقم (٤) ذات أقسام ثانوية ابتدعها بعض الجيولوجيين وهي ٤أ و ٤ ب و ٤ ج حسب الأعمار وهذه الفترة لها أهمية خاصة نظراً لأنه من خلالها نقابل أعظم ابتكار تأثيراً في البشرية وهو الكتابة. إذ إن اختراع الكتابة إنما يمثل تقدماً حقيقياً حضارياً بينما لا تمثل التغيرات في فنون الفخار شيئاً من ذلك ولهذا السبب فإن اصطلاح الأدب الأصيل Prote Literat قد أصبح الآن مستخدماً للإشارة إلى الفترة بكاملها التي حدث فيها اختراع الكتابة، ويستعمل هذا الاصطلاح في هذا الكتاب عند عدم وجود أي غموض، ولكن عظمة هذا الابتكار تظهر عندما نجد علماء مختلفين يطلقون على هذا الابتكار معاني مختلفة وإن جميع هؤلاء العلماء يقرنون هذا الابتكار مع طبقة أوروك رقم ٣، ولكن هناك أولئك الذين يقولون إن كتابة أوروك لها مراجع غير معروفة لدينا. ولكن هذا الكلام ليس شاملاً وليس مُقنعاً ولهذا فلن نعالجه بعد الآن. ولقد كان أصل الكتابة بسيطاً ومنخفضاً. فلم تظهر الكتابة لخدمة الدين (عدا أحوال غير مباشرة) ولم تكن الكتابة أداة لنقل التاريخ أو الأدب أو الأفكار النبيلة بل كانت لخدمة علاقة عاديَّة وهي حفظ حسابات المعبد. فقد درست صور المواد ذات العلاقة مع علامات تمثل الارقام ورسمت بشكل عشوائي بواسطة قصبة على قطعة من

الصلصال اللين وهو المادة المتوفرة في منطقة ما بين النهرين. ولقد وجدت عدة أمثلة عن هذه الكتابة في الطبقة رقم (٤) في أوروك. وكانت ماهية المواد المستعملة ظاهرة وهي مؤسسة على صور الأشياء مبدئياً أي مرحلة الصور وفوق ذلك فقد كان عدد لا بأس به من تلك الصور يُمثل بعض الأشياء مثلاً الوحوش البرية التي لم يكن لها من لزوم عند جرد موضوعات المعبد وهذا يدل على أن بعض الآثارات كانت تُمثل معاني أخرى غير المواد المصورة ويظهر في الصفحة المقابلة أمثلة عن هذه الأشياء.

ولقد بقي الصلصال دوماً في ثقافة ما بين النهرين هو أكثر المواد شيوعاً في الكتابة بينما كانت القصبة هي المرافقة للكاتب. ونظراً لأن الصلصال يصبح صلباً وغير قابل للتلف عندما يكون جافاً أو مشوياً بالفرن، لذلك فإن أرض العراق مملوءة بأكوام من الصلصال المكتوب خصوصاً في الفترة ما قبل عام ٣٠٠٠ق.م، واستمرت هذه الأساليب في الكتابة حتى حوالي زمن المسيح. هذا وعن شكل وحجم تلك الألواح الصلصالية المكتوبة التي تدعى بالألواح المسمارية مع أن أقدم أنواع الكتابة قد اتخذ هذا الاسم، مع أنه، وبالنسبة لأقدم أنواع الكتابة، فإن الاسم (مسماري) ليس مناسباً تماماً.

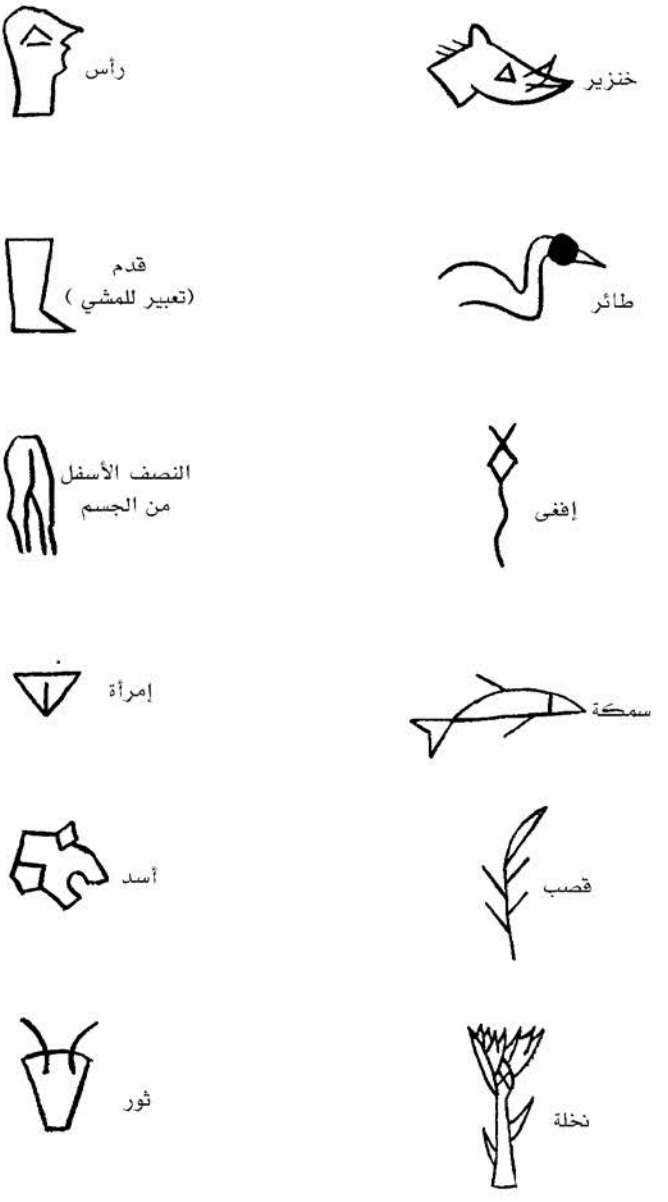


**الكتابات الصورية البدائية (الأكثر قدماً)**

بينما كان شكل بعض الألواح الصلصالية القديمة بيضوياً أو مستديراً كأنه كعكة مسطحة، إلا أن الألواح المتأخرة أصبحت مستطيلة تقريباً وكانت الأبعاد تختلف من حجم علبة الكبريت حتى حجم ورقة النشاف مع أنه كان من العادة أن يكون اللوح صغيراً جداً. بحيث يمكن حمله باليد الواحدة.

ونظراً لأن الأشكال الأولى للكتابة كانت تصويرية أي بشكل صور، ونظراً لأنه ليس من الممكن تحليل اللغة المكتوبة، ما لم تمثل الكتابة عناصر لغوية أو قواعدية بالإضافة إلى الصور. فمن المستحيل أن نعلم علم اليقين ما هو نوع اللغة التي كان يتكلم بها مخترعو كتابة أوروك ففي الوقت الذي تطورت فيه الكتابة إلى المرحلة التي أصبحت عناصر القواعد اللغوية فيها معروفة فإنه لا شك أن اللغة المكتوبة كانت هي اللغة السومرية.

لقد أظهر فن العمارة في فترة أوروك المتأخرة بعض التطورات الممتعة ولكنها سببت حصول بعض المشاكل ويذكر في هذا المقام المعبد الحجري في الطبقة رقم (٥) في أوروك. هذا وإن فترة الطبقة السادسة والرابعة في أوروك تظهر تطوراً مرموقاً مثلاً بداية بناء الزقورات والأبراج المدرجة التي كانت تعلو فوق مدن منطقة ما بين النهرين والتي ذكرت في التوراة باسم برج بابل. هذا وإن أقدم مثال من أوروك يتألف من مصطبة مرتفعة تبلغ مساحتها حوالي الفدان وهي مبنية من البيزي Pise والطوب غير المشوي. وكانت زواياها موجهة نحو الشمال الشرقي والجنوب الغربي وارتفاعها يبلغ حوالي أربعين قدماً فوق السهل. وكان الوصول إلى القمة يتم عبر أدراج أو عن طريق التسلق. وعلى قمة المصطبة هناك معبد مطلي بالجص الأبيض وهو يدعى بالمعبد الأبيض (انظر اللوحة رقم ١) وكان التصميم والتخطيط الرئيسي للمعبد الأبيض عبارة عن حجرة مستطيلة تمتد من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي مع وجود نوافذ تفتح على الجانبين الطويلين. وتنكسر الرتابة الموجودة في الجدران الخارجية بوجود سلسلة من الفجوات العامودية وهذا يؤلف شكلاً من أشكال الزينة أصبحت تقليدية في معابد منطقة ما بين النهرين. وهناك معبد مشابه وهو متوضع فوق مصطبة عالية (وفي هذه الحالة ذات مرحلتين) وهو يعود إلى نفس

الفترة ويتواجد في تل أوقير Tell Uqair بينما نجد أن الزقورة Ziggurat في (أور) (انظر اللوحة ٣ أ) يظهر أن أصلها يعود إلى فترة (أوروك). ولقد بُذلت مساعدات قيمة عند تخمين المساحة الفعلية لمثل هذه الأبنية وذلك ليس فقط عن طريق بقايا الأساسات بل أيضاً عن طريق قطع الحجارة المتناثرة لبعض نماذج الأبنية التي وجدت في (ورقة) Warka.

وهناك عدد من المعابد الأخرى في (ورقة) تعود إلى فترات أوروك الرابعة الثالثة والثانية (جمدت نصر) ولكن لا يُعرف إلا القليل عن الأشكال الحقيقية للعبادة في ذلك الزمن. وكان أحد المعابد المرموقة عبارة عن بناء ذي مخطط داخلي بشكل الصليب يحتوي على ثلاثة أجزاء محجوبة منفصلة عند رأس الصليب والتي ربما دلت على عبارة نوع من الثالوث الإلهي ولكن ليس هناك أي مذبح أو مائدة لتقديم الضحايا والذبائح أو أية منصة عالية ولقد أشار الدكتور هـ. لنزن H. Lenzen أنه خلال الفترة المتأخرة من تاريخ (أوروك) كانت المعابد تبنى بشكل زوجين مما يدل على عبادة إلهين مُقدسين. وخلال جميع الفترة التاريخية كان الإله الأعظم في (أوروك) هو (انين) Innin. وتعني هذه الكلمة باللغة السومرية سيدة السماء. وحالة استعمال هذا الاسم في فترة (أوروك) ولكن بصيغة أخرى فإن هذا الأمر مثير للجدل. ففي الفترة التاريخية كان اسم هذه الإلهة مقترناً باسم والدها آن Ann ولكن من الشائع أن أسمها كان مقترناً مع اسم دوموزي (تموز) وقد اشتهر هذا الإله بكونه إله النباتات والخضرة منذ الأزمنة القديمة ومع أن الاسم الحقيقي دوموزي لم يظهر حتى الألف الثالث ق.م إلا أنه كان هناك إله آخر اعتبر رأس الإلهة في اقدم الطقوس. ولهذا أصبحت هناك إمكانية أن يتألف الزوج المقدس الذي عُبد في (ورقة) في فترة (أوروك) المتأخرة من إلهي الخصب اللذين أصبحا فيما بعد يعرفان باسم دوموزي وانين Innin.

ومع ذلك ومع أنه من الممكن معرفة بعض الأمور حول الدين المعاصر في فترة (أوروك) وذلك من ملاحظة الأساليب المعمارية المستعملة في المعابد فضلاً عن العادات والتقاليد الدينية التي لم تعد موجودة ابتداءً من نهاية هذه الفترة بكونها

الإشارة الوحيدة المرموقة. ولكننا من الممكن أن نتعلم شيئاً آخر أيضاً من اختراع آخر يُعزى لشعب (أوروك) وهو اختراع الأختام الإسطوانية وهذا الاختراع الذي انتشر بشكل واسع في حضارة منطقة ما بين النهرين المتأخرة قد تقدم زمنياً وسبق اختراع الكتابة إذ إن أصله يعود إلى فترة أوروك الخامسة. أما الختم العادي المعروف منذ فترة (حلف)، فقد استبدل بالختم الإسطواني وهو الاختراع الجديد. ولم يكن هذا الختم الإسطواني الذي كان بشكل اسطوانة صغيرة مصنوعة من بعض الحجارة شبه الكريمة، أكبر من إبهام الإنسان وقد نُقش عليه تصميم أو تخطيط يُظهر ماهيته عندما يُدَحرج الختم فوق الصلصال اللين. وللتعرف على أمثلة من الفترات المتأخرة أنظر اللوحة رقم ٢٧ أ و ٥٠ أ و ٥٠ب. وكان المقصد الأصلي لهذه اللوحات هو حماية الممتلكات فالأشياء الثمينة كانت تُحفظ في أوانٍ مغطاة بالقماش أو الجلد المثبت بخيط وكانت تنتشر طبقة من الصلصال فوق الخيط. وبعدها يُدحرج الختم الأسطواني فوقها وبهذه العمليات يُظن أن المقدرة السحرية للطقوس الدينية أو المشاهد الخرافية يتم إنجازها. ومن الواضح أنه لا يجوز التلاعب بالإناء دون معرفة مالكه. ولكن ربما كان هذا اعتباراً ثانوياً. هذا وقد حدث اختراع الختم الأسطواني في (ورقة) نفسها نظراً لأنه لم يكتشف وجود مثل هذا الختم في أي موقع آخر عدا موقع ثقافة (أوروك) وذلك قبل فترة (جمدت نصر) Jemdet Nasr ومع أن المشاهد الموجودة على الأختام الأسطوانية التي كانت تعود إلى فترة أوروك الخامسة والرابعة، إنما تقدم بعض الشواهد حول الديانة المعاصرة، إلا أنه ليس من السهل تقرير ماهية هذه الشواهد فقد وجدت صور حيوانات كانت تمثل رموزاً دينية مثلاً هناك أحد الأختام وجدت عليه صور تيس ومعه ثعابين متشابكة ونسر ذو أجنحة مطوية وكل هذه الصور موجودة معاً وهذا لا يمثل مشهداً حقيقياً بالطبع وربما كان المشهد الشائع المألوف هو بعض مناظر خضراء مع وجود حيوانين مرسومين بشكل متقابل أحدهما على كل جانب، وهذا يمثل النشاط الإخصابي للإله دوموزي الذي تُعزى إليه الرموز الأخرى العائدة إلى تلك الفترة. وهناك أيضاً رمز للإله الأم. وفي الأختام الأخرى العائدة إلى تلك الفترة هناك تمثيل لبعض المشاهد

الطقوسية التي تشمل تقاديم الفواكه والخضروات واللحم للإله أو تمثل بعض الأنشطة التي لها علاقة بقطعان المواشي المقدسة بالنسبة للإله.

إن فترة جمدت نصر Jemdet Nasr التي تعود إلى الطبقة رقم ٣ ورقم ٢ في (ورقة) (الوركاء) لا تزال تتبع فترة أوروك التي وجدت فيها الكتابة لأول مرة. ويعتبر بعض العلماء أن الفترة المتأخرة ما هي إلا توسع مباشر للفترة الأقدم فقد كان ذلك العصر عصر التوسع. ففي داخل القسم الجنوبي من منطقة ما بين النهرين (أي منطقة بابل) حدث ذلك النمو المتسارع من القرية إلى المدينة في أقصى الجنوب (سومر) ابتداءً من فترة عبيد فصاعداً، وقد عرفت صحة هذا القول من (إيريدو) و(آور) و(إيديش) وفي أثناء (أوروك) لوحظ هذا التطور في سومر. ومع ذلك وحتى زمن طبقة أوروك الرابعة بقيت الحدود الشمالية لهذا التطور تبدو وكأنها هي أوروك نفسها. أما في الأجزاء الوسطى والشمالية من مواقع المجتمعات البابلية (مع بعض الاستثناءات المحدودة) كانت هذه الأجزاء مستمرة في المعيشة في قرى صغيرة. ولكن تغيرت الأمور في فترة جمدت نصر Jemdet Nasr وربما كان ذلك نتيجة لحدوث بعض التحسينات في تقنيات الري وكذلك بداية تطور المدن في منطقة بابل الوسطى والشمالية أيضاً. وكانت (نيبور) و(كيش) و(ايشنونا) Eshnunna, Kish, Nippur على نهر ديالا أمثلة على ذلك.

ولقد وجد هناك معبد من نوع معابد جمدت نصر شمالاً في (تل براك) Tell Brack على الخابور، مع أنه نظراً لأن المواقع المعاصرة الأخرى الواقعة شمالاً متطرقة من منطقة ما بين النهرين لم يظهر فيها أي أثر لفخار جمدت نصر، إلا أن البقايا في (تل براك) ربما قد أتت من المستعمرة التي أتت من الجنوب نتيجة للتوسع الثقافي على وجه العموم.

ولقد وجد شاهد آخر يدل على النفوذ الثقافي لمنطقة ما بين النهرين في هذه المرة في مصر فقد وجدت الأختام الأسطوانية التي هي اختراع من منطقة ما بين النهرين في مصر بالإضافة إلى طرق بناء الطوب التي كانت غريبة بالنسبة إلى مصر ولكنها أساسية في ثقافة جمدت نصر. وفي مصر أيضاً وجدت رسوم متكررة من

منطقة ما بين النهرين وبعض الأشياء المتمثلة بالفنون ومنها مثال واضح وهو صورة قارب من نوع قوارب ما بين النهرين وُجد محفوراً على قبضة سكين (انظر لوحة ٦٤ وقارن الزوارق في الصورة رقم ٢ب و ٣٣ب) وهناك بعض الأواني المصرية الغريبة التي تظهر نفوذ منطقة ما بين النهرين بينما نجد مبدأ الكتابة (وليس تقنية الكتابة) قد أخذ بالتأكيد من منطقة ما بين النهرين من قِبَل المصريين. هذا وإن النقطة الظاهرة التي التقى فيها المصريون مع منطقة ما بين النهرين هي سوريا ولكن هناك معارضة لهذا الرأي من قبل علماء الآثار وهي أن سوريا لم تظهر في ذلك الوقت أي أثر للنفوذ المصري أو نفوذ منطقة ما بين النهرين. ويبدو أنه من المحتمل أن تقابل التجار المصريون مع تجار منطقة ما بين النهرين إما في جنوب بلاد العرب أو في الصومال في ذلك العهد وربما كان ذلك طلباً للبخور اللازم لأداء الطقوس الدينية.

لقد أثر التوسع الثقافي في فترة (جمدت نصر) على المناطق إلى الشرق والشمال من منطقة ما بين النهرين. وهناك وجد في هذا الزمن بعض الألواح المنقوشة في (سوزه) Susa و(سيالك) Sialk في إيران وهي تظهر تأثير منطقة ما بين النهرين. بينما وجدت الأختام الإسطوانية في مناطق بعيدة مثل طروادة وفي موقع تيب هزار Tepe Hissar قرب الزاوية الجنوبية الشرقية لبحر الخزر أما في جنوب منطقة ما بين النهرين نفسها فإن الأختام الإسطوانية التي أصبحت وافرة العدد هناك كانت تقدم معلومات تصويرية وافرة حول الطقوس تفوق المعلومات المتوفرة حول الفترة السابقة، مع أن هناك اختلافاً حول تفسير تلك المعلومات. والنقطة الرئيسية المتداولة هي المدى الذي ينبغي أن يعتبر به الإله دوموزي Dumuzi مصدراً للخصب والنماء أما الإلهة انين Innin وهي إلهة الخصب المؤنثة وبصورة خاصة إلهة مدينة أوروك، فقد أصبحت الآن ممثلة على الأختام الأسطوانية دون أن تخلع الصفات البشرية على الإلهة كما كان الحال في تماثيل الإلهة الأم في الأزمنة القديمة بل عن طريق وجود رموز معروفة من الفترة التاريخية بأنها مرافقة وملازمة لها.

وبالإضافة إلى العدد الوافر من الأختام الإسطوانية من فترة (جمدت نصر) كان هناك عدد من الأشياء التي تحمل مشاهد نافرة تقدم لنا بعض الاستبصارات حول

الشؤون الدينية في تلك الأزمنة السحيقة في القدم وهناك شيء ذو أهمية بالغة في هذا الخصوص. وهو عبارة عن مزهرية من المرمر علوُّها أكثر من ثلاثة أقدام وقد وجدت في (ورقة) وعليها مناظر محفورة بشكل نافر في أربعة لوائح تتناقص في حجمها من الأعلى إلى الأسفل (انظر اللوحة رقم ٨ أ) ويُصور الشريطان السفليان سنابل الشعير وشجر النخيل والأغنام وتيوس الماعز أي النباتات والحيوانات التي كان يعتمد عليها الإنسان المتحضر والتي من خلالها أظهرت إلهة الخصب كرمها ومعروفها. وأما الشريط التالي فيظهر فيه الرجال العراة بشكل مناسب لوقفة الإنسان أمام الإله. وكان هؤلاء يحملون معهم بعض التقاديم والأضحيات للإله.

وأما أعلى وأعرض شريط من الصور النافرة فهو يُظهر الإلهة والكاهنة التي تمثل الإلهة وهي واقفة لابسة ثوباً وعلى رأسها لباس رأس غريب وهي واقفة أمام تلك الرموز التي عرفت في الأزمنة المتأخرة بأنها تمثل إلهة الخصب أنين Innin وترى الإلهة أو من يمثلها وهي تستلم سلة من الفواكه وخلفها هناك هدايا أخرى ولقد فسرت تلك السلسلة الكاملة بأنها تشير إلى الزواج المقدس في عيد السنة الجديدة الذي يعتمد عليه أحوال خصب البلاد. وبينما يتطرق الشك بالنسبة لتلك المشاهد إلا أنه لا مجال للشك أن جميع تلك المشاهد متصلة ولها علاقة بطقوس الإخصاب.

ويصدق هذا القول على المشهد المحفور بالشكل النافر على حوض أو جرن حجري يعود إلى فترة (جمدت نصر) (انظر اللوحة ٩ أ) وهنا يبدو البيت وكأنه كوخ طقوس مقدس بالنسبة إلى أنين Innin وذلك لأن الأشياء البارزة من كل جانب من جوانب الكوخ والشيء الموجود إلى أقصى اليمين للصور النافرة ما هي إلا رموز لإلهة الخصب ويرتبط المشهد بكامله بالطقوس التي يُقصد بها تقوية الإخصاب لقطيع المواشي.

وبالنسبة للثقافة المادية فليس لدينا المعلومات الكافية نظراً لأن معظم الحفريات التي حدثت في تلك الفترة كانت منحصرة بمنطقة المعابد فلم تظهر والحالة هذه كثير من الأدوات أو المواد المنزلية، هذا وقد زادت كميات المعادن المستعملة بحيث أصبحت تشمل الذهب والفضة والرصاص والنحاس. وقد قيل إنه قد وجدت قطعة

من الأدوات المصنوعة من الحديد ولكن لم تصل لنا أية معلومات أخرى. وأما الأسلحة المستعملة فكانت تشمل القوس والرمح وقد وجد رأس رمح نحاسي يعود إلى تلك الفترة في (اور) ووجدت شفرة خنجر نحاسية في (فارة) Fara. ومن بين الأشياء المعدنية التي وجدت، وهي تعود إلى تلك الفترة، هي ما توصف بأنهما ملعقتان نحاسيتان لهما مقابض طويلة (ربما كانت للزينة) وكان مقبض إحداهما معوجاً ووجدت كذلك أداة نحاسية ذات شعبتين مثبتة بمقبض خشبي ووجدت كذلك صُنارة لصيد السمك ومسامير وأزاميل وأدوات مختلفة غير معروفة الهوية وكلها مصنوعة من النحاس وقد استعمل النحاس أيضاً لعمل بعض الأواني ومعظمها طاسات مسطحة.

هذا وقد استعمل القماش المنسوج في هذه الفترة، فقد وجدت آثار من القماش في إحدى التعاويذ الحيوانية المصنوعة من النحاس.

إن هذا الوصف المختصر لفترتي أوروك (وجمدت نصر) ينطبق فقط على تلك التطورات التي بدأت في جنوب البلاد فيما سوف يدعى منطقة سومر فيما بعد وكذلك قسم من أكاد. ومن الواضح أن شمال البلاد لم يكن ذا دور أساسي في هذه الأمور المتقدمة المرموقة والتي وصلت إلى هناك إما عن طريق الاستيطان (كما كان الحال في (تل براك) Tell Brak وهو الموقع الشمالي الوحيد الذي يُظهر علاقة وثيقة مع الجنوب في هذه الفترة) أو كان وصولها ببطء عن طريق الانتشار الثقافي. ولم تظهر الكتابة خلال تلك الفترة في أي موقع إلى الشمال من نهر دبالا بينما لم يكن نوع الفخار المعروف باسم (جمدت نصر) معروفاً ويبدو أنه من الغريب أن تكون عملية توسع (جمدت نصر) التي كان لها تأثيرها في مصر وإيران، قلما لامست منطقة ما بين النهرين الشمالية. وربما كان تفسير ذلك أنه كان هناك ثقافة منافسة في الشمال. وذلك لأنه وجد في ذلك الوقت نوع من الفخار المُتميز الذي كان منتشراً في الشمال ولكن لم يكن هذا الفخار موجوداً في الجنوب. وفوق ذلك يظهر أن الأشكال الدينية في الشمال كانت تختلف عنها في الجنوب. وذلك

لأنه وفي المواقع الشمالية يشير وجود عدد من الأماكن المقدسة إلى وجود مجمع من الآلهة بعكس وجود زوج من الآلهة كما كان المعتقد في (أوروك).

وهناك حقيقة هامة خطيرة وهي أن أحد المعابد وهو المعبد الغربي من مستوى (٨ج) في (تيب غاورا) Tepe Gawra ، وهو من المواقع الشمالية الرئيسية، كان مستعملاً لأغراض علمانية، فقد استعمل كمستودع، ويبدو أن هذا حادث فريد في تاريخ الديانة في منطقة ما بين النهرين وربما بدا أن موقع (تيب جاورا) قد انتقلت السيطرة عليه من مجموعة من السكان إلى مجموعة أخرى وكانت ذات ثقافة مشابهة، إلا أن كل مجموعة كان لها تقاليد دينية. وهكذا فقد خلدت أو أدانت تدنيس البناية المرتبطة بطقس من الطقوس الدينية المهزومة.

ويتبع فترة الأدب الأصيل Protoliterate فترة معروفة باسم الفترة الأسرية الأولى وهي تقسم إلى أقسام ثانوية ١، ٢، ٣ (ويعتبر الرقم (١) الأقدم ويستعمل هذا الاصطلاح ليعني الزمن الذي ازدهرت فيه الدول - المدن خلال منطقة بابل وهو يبدأ عند نهاية فترة (جمدت نصر) عندما أصبحت الكتابة مفهومة وهي تغطي فترة تُقدر ما بين ثلاثة وستة قرون وتنتهي بظهور الإمبراطورية الأولى أي إمبراطورية سرجون الآكادي، ففي الفترة الأسرية الأولى برز على السطح شعب يدعى السومريون وقد كان لهؤلاء الفضل في ظهور الدول - المدن. وبالنسبة لأصول هؤلاء هناك انقسام في الرأي بين العلماء بالنسبة للسؤال وهو إلى أي من الثقافتين السابقتين في الفترة الأولى يعود ظهورهم لأول مرة. وتمثل الفترة الأولى ازدهار ثقافات (أوروك) و(جمدت نصر).

ولما كان من الممكن رؤية بعض المظاهر الاقتصادية والدينية للحضارة السومرية المتأخرة في (جمدت نصر) إلا أن هناك علماء قلائل لديهم بعض الشكوك في أن ثقافة (جمدت نصر) كانت ثقافة سومرية سائدة. وهناك خط قوي من قوة الاستمرار يفصل ما بين ثقافة جمدت نصر وثقافة أوروك بحيث تدعى الثقافة الأخيرة بالثقافة السومرية. ففي الفترة السابقة لهذه عندما استبدلت الثقافة العبيدية بثقافة أوروك بدأت المحاولات بالتبدل. وذلك لأن فترة أوروك كما رأينا قد

حصلت على بعض التقدم على ثقافة عبيد ولكن ومع ذلك فإن هناك نوعاً من الاستمرارية في بعض المسائل مثلاً فنون عمارة المعابد وربما الطقوس نفسها. وهكذا فإن تلك الجماعة من الثقات إما أنهم يعتبرون أن فترة أوروك هي التي تخبرنا عن وصول السومريين المتطفلين المعتدين إلى بلاد كانت تتمتع بحضارة عبيد الناجحة أو أنهم قد عاملوا هؤلاء كجزء من التطور داخل ثقافة عبيد التي كانت تعتبر حينذاك أنها من خلق وإنشاء أجداد السومرين التاريخيين. وهناك نقطة تدعم النظرية الأخيرة وهي أن عدداً من المدن السومرية التي تأسست قبلاً أثناء فترة عبيد كانت تحمل أسماء غير سومرية وتعتبر لاكاش Lagash وشيربورلا Shirpurla (وهي تلو الحديثة) أمثلة على هذه الفرضية، وهناك نظريات كثيرة ولكنها غير مؤكدة بالنسبة للوطن الأصلي للسومريين وذلك لأن صعوبة وغموض لغتهم المؤلفة من عناصر مختلفة ملونة قد أدت إلى مقارنتها مع عدة دزينات من اللغات الأخرى ابتداءً من الصينية والتبّتية الدرافيديه والهنغارية وصولاً إلى اللغات البعيدة في القارة الأفريقية، ثم إلى لغات الهنود الأمريكيين وجزر المحيط الهادي. هذا ولم ننسَ لغة الباسك، بينما نجد أن أحد الباحثين اليهود الذي لم يستطيع أن يتخلص من ذلك الضعف اليهودي المتميز بالتحيز العنصري البغيض فقد وضع هذا الباحث اللغة السومرية في مستوى الفولابوك* Volapuk بالادعاء أن اللغة السومرية لم توجد أبداً كلغة طبيعية حية بل كانت من اختراعات بعض الكهنة البابليين الساميين.

ولكن الحقيقة أن تلك اللغة لا تعود إلى أصل سامي ولا إلى أصل هندو-أوروبي، فهي ملونة في بُنيتها وربما كانت مرتكزة على الأنغام. ولكن لقد تأكد الآن أنه ليس هناك من علامة أساسية بين اللغات والأصول العرقية. وليس هناك من عالم أو باحث ذي شهرة يسعى أن يحل مشكلة الأصول السومرية على أساس اللغة فحسب.

ويقدم لنا علم الأنثروبولوجيا (علم الإنسان) الفيزيائي بعض الشواهد المؤسسة على بقايا الجماجم ولكن تفسير هذه الشواهد لا يزال موضع خلاف.

* فولابوك: أي لغة عالمية وصيغة مبنية على لغة أخرى.

هذا وإن مناقشة مكان وأصل السومرين يبدأ دوماً بالقول إنه حيثما كان مكانهم الأول، فإن هذا المكان لم يكن سومر. ولكن حدثت بعض التحديات لهذا الرأي إلا أن ذلك التحدي لم يكن مدعوماً بأية مناقشة منطقية فلم يكن في أرض سومر بالحقيقة أي سكان مختلفة الأعراق مع أن الفرضية القديمة كان مفادها أن أرض سومر لم ترتفع من منطقة الخليج العربي حتى الألف الخامس ق.م. ولكن هذه الفرضية تعتبر الآن فرضية خاطئة. فالحقائق العلمية الأثرية التي لا مجال للشك في صحتها تذكر أنه لم يكن هناك أية بقايا للثقافة البشرية في جنوب منطقة بابل في زمن سابق لفترة إيريدو وهي تعود إلى حوالي ٤٥٠٠ ق.م أو تاريخ متأخر عن هذا التاريخ قليلاً.

وبالنسبة للوجهة التي أتى منها السومريون فقد كثرت النظريات حول هذه النقطة فالأساطير القديمة المنقولة عن طريق اليونان تتحدث عن رجل يشبه السمكة يدعى أونيس Oannes قد سبح حتى وصل إلى الخليج العربي حاملاً معه بعض العطايا والهدايا الحضارية. وهذه القصة تنطبق على الأفكار السومرية التي تعرفنا عليها من الوثائق المسمارية نظراً لأن إله الحكمة (انكي) وهو اسمه الذي كان يحمله في النصوص السومرية ولكن إيا Ea هو إله إيريدو وهي مدينة قديمة على ضفاف إحدى البحيرات الضحلة في الخليج العربي التي ذكرت من قبل كأحد المواقع التي احتلتها بابل القديمة في اقدم الأزمنة وطبقاً للوثائق السومرية كانت هذه المدينة أول المدن الخمس التي وجدت قبل الطوفان وإن جميع هذه القصص تشير إلى الأستيطان في سومر. وفوق ذلك فإن تلمون* Tilmun الواقعة في البحرين هي ذات أهمية عظيمة كأقدم طبقة من الطبقات السومرية الدينية. ولقد قيل إنها تمثل مركزاً من مراكز الثقافة السومرية وهي أقدم حتى من إيريدو Erido. ويدل هذا أيضاً أن السومرين قد دخلوا منطقة ما بين النهرين عن طريق الخليج العربي، ولكن ليس هناك أي شاهد من علم الآثار يدعم مثل هذه النظرية مع أن هناك حفريات تجري الآن في البحرين ولابد أن تقدم لنا القول الفصل في هذه القضية.

* تلمون: اللفظ الأدق هو دلون وهو الاسم القديم لجزيرة البحرين.

إن وجهة النظر السائدة والمؤسسة على ذلك الخضم من التقاليد والقصص المتواجدة في الأدب السومري القديم (وبصورة خاصة الملاحم) وبالصلات الثقافية الواسعة بين سومر وبلاد فارس(وبصورة خاصة عيلام) في فترة ما قبل التاريخ وهي أن السومريين قد أتوا إلى منطقة بابل الجنوبية من الجهة الشرقية أو الجهة الشمالية الشرقية. هذا وإن أهمية الزقورات في الديانة السومرية قد اتخذت كشاهد أن الوطن الأصلي للسومرين هو الجبال ولكن هذه فكرة يعوزها البرهان، نظراً لأن الزقورات كانت تمثل الجبال الكونية ولم تتبع منطقة معينة بل إلى الكون المعروف بأجمعه في العالم القديم مع وجود بعض التعديلات ابتداءً من مصر حتى بلاد الصين.

وقد حاول بعضهم إرجاع أصل السومريين إلى ثقافة وادي الهندوس المبكرة وإلى جنوب بلوخستان أو كليهما. ولكن ثقافة وادي الهندوس التي تدعى حرابا Harappa التي لم يكشف النقاب عن كتابتها بعد من الممكن أن تعود إلى أسلاف شعب الدرافيدين الهندو-آريين وهم متواجدون الآن في جنوب الهند. هذا وإن النظرية التي تقول بوجود صلات عرقية حقيقية بين السومرين وشعب حرابا لها انجذاب خاص بالنسبة لأولئك الذين يؤمنون بوجود علاقة لغوية ما بين السومرين والدرافيديين، ولكن هناك شواهد لا يتطرق لها الشك وهي بشكل مواد وفنون متميزة في إحدى الحضارات وجدت في مواقع الحضارة الأخرى على وجود علاقات تجارية في الألف الثالث ق.م ما بين السومريين وشعوب وادي الهندوس وبلوخستان. وفوق ذلك هناك بعض مشاهد طقوسية تشمل العجول الهندية ذات السنام وجدت في أور وسوزا وهذه تشير إلى وجود مقاطعات أو بلاد كان يسكنها التجار الهنود في جنوب منطقة ما بين النهرين وبلاد فارسمن الذين كانوا متمسكين بدياناتهم. ومن هذا الشاهد الذي يعود إلى الألف الثالث ق.م نشأت نظرية تقول بوجود علاقة ما بين السومريين والدارفيديين، يبدأ تاريخها من فترة أوروك وتعود إلى صلات لغوية وعرقية. وهذه بالحقيقة وجهة نظر ممتعة ولكنها تفتقر إلى البرهان.

لقد بذلت محاولة لجمع جميع القصص والشواهد من علم الآثار ووضعها في نظرية واحدة وذلك عن طريق تخيُل وجود موجتين من السومريين آتيتين من الشرق إحداهما سافرت بحراً إلى الخليج العربي والأخرى عن طريق البر عن طريق بلاد فارسومعها مجموعة أخرى من شعوب أخرى هاجرت إلى وادي الهندوس، بينما من المستحيل أن نؤكد أنه من غير الممكن حدوث تحركات عرقية على هذه الخطوط حيث ليس هناك من شاهد في الوقت الحاضر للبرهنة على وجود صلات مبكرة قديمة مع الهند وكذلك مع مصر والتي من الممكن تفسيرها بالنسبة للعلاقات التجارية والتي ليس من الضروري أن تتطلب مقداراً واسعاً من الحركات العرقية، بينما لم يكتشف أي أصل مشترك للدرافيديين والسومريين أو حتى أية علاقة وثيقة بينهما. وإن أكثر ما يستطيع المرء استنتاجه بشكل صحيح في الوقت الحاضر هو أن السومريين قد أتوا من مكان ما إلى الشرق من بابل.

إن فترة السلالات المبكرة هي الفترة التي مع أنها قليلة بل نادرة التوثيق وغالباً ما ينقصها الدقة في الترجمة. إلا أننا من الممكن اعتبار أننا قد مررنا من مرحلة ما قبل التاريخ إلى المرحلة التاريخية وهنا وفي هذه المرحلة تظهر تلك الخصائص المتميزة للدول - المدن السومرية لتصل إلى أقصى حالات التطور وأخيراً تبدأ بالانحلال والفناء. بينما تظل التقاليد ملتصقة ليس بدول – مدن معينة بل بالمرحلة التاريخية ككل بالنسبة للقيمة النسبية لمختلف أنواع الشهادات حول هذا الزمن فإن الشاهد الأكثر موثوقية هو شاهد علم الآثار ولكنه يصعب تفسيره وغالباً هو نادر في اكثر النقاط حساسية "فالتقاليد السومرية واضحة بالنسبة للأسر في سومر في الألف الثالث ق.م مع أن الذي رتب هذه الأسر كان محكوماً بفكرة خاطئة وهي أن كل أسرة من هؤلاء قد كانت تحكم جميع منطقة سومر وأكاد، وقد ابتدأت كل أسرة وانتهت عن طريق انتصار عسكري أو انكسار. وقد احتفظت بعض القصص والتقاليد السومرية الأدبية الأخرى ببعض الذكريات ذات القيمة النسبية لأحداث وشخصيات تعود إلى الألف الثالث ق.م.

وهناك عمل قام به الكاهن البابلي بيروسوس Berossos ذكر فيه تلك التقاليد التي نقلت إلى الأدب اليوناني في القرن الثالث ق.م ولكن تلك التقاليد التي ذكرها لا تصلح لتكون مصدراً مستقلاً.

لقد كان لدى السومريين شأن العبرانيين (الذين استعاروا القصة من بابل) كان لهؤلاء السومريين تقاليد وقصص عن حادث الطوفان، وتذكر قائمة الملوك السومريين أسماء خمس مدن كانت موجودة قبل حدوث الطوفان وهي: إيريدو وباد تيبيرا Bad Tibira ولاراك Larak وسيبار Sippar وشوروباك Shuruppak. وكانت ايريدو دون شك وكما رأينا ذات تاريخ قديم وأما شورو باك فربما تعود إلى فترة عبيد وكانت سيبار هي المذكورة في جميع الألواح أكثر منها مدينة حفريات أثرية. ولا يعرف أي شيء بالتحديد بعد عن مستوياتها الأولى. أما لاراك فلم تحدد هويتها بعد بينما تعتبر بادتيبرا هي بالحقيقة مدينة تل مدينة Tell Medena الحديثة وقد جَرت فيها بعض الحفريات. ويبدأ الحديث الفعلي الذي ذكر في قائمة الملوك بخصوص هذه المدن كما يلي:

عندما نزلت الملكية من السماء بدأت مملكة إيريدو. فقد أصبح أليليم Alulim ملكاً وحكم حوالي ٢٨،٨٠٠ عام وأما آلاغار Alagar، فقد حكم ٣٦٠٠٠عاماً وقد حكم ملكان مدة ٦٤،٨٠٠عام. وإني أترك هنا موضوع إيريدو فقد انتقلت الملكية إلى باد تيبيرا وتستمر هذه القصة طبقاً لهذا النسق. وكان أحد ملوك بادتيبيرا اسمه دوموزي Dumuzi وهو أحد الرعاة وحكم مدة ٣٦٠٠٠عام وإن العلاقة بين هذا الحاكم الغامض وبين إله الخصب والمراعي من نفس الاسم هي علاقة مبهمة غامضة. إنما كل ما هو واضح هو أن إله الخصب والمراعي كان معبوداً لمدة طويلة قبل أن يطلق عليه اسم دوموزي بشكل رئيسي. وفي نهاية قصة المدن الخمس التي كانت موجودة قبل الطوفان تختتم قائمة الملوك السومرين حديثها كما يلي:

كانت هذه المدن عددها خمسة وقد حكم ثمانية ملوك مدة ٢٤٠،٢٠٠ عام وقد جرفها الطوفان جميعها.

يمكننا هنا ذكر حقيقة أن الجزء الأبكر من هذا التقليد والمتعلق بإيريدو من المحتمل أنه يعود إلى زمن ما قبل فترة الأسر الأولى كما عرفناها. ويبدو أن هذا الاستنتاج كان ضرورياً بالنسبة لعلم الآثار الذي يُظهر أنه لم يكن أي استيطان هام (لإيريدو) بعد فترة (أوروك) وبعد فترة (عُبيد) بوقت قصير.

وكانت أول سلالتين حكمتا بعد حدوث الطوفان عندما نزلت من السماء الإرادة بإعادة الملكية، كانتا وطبقاً لقائمة الملوك السومريين هما مملكة (كيش) Kish في شمال بابل ومملكة (إيريش) Erech في الجنوب. ولقد ذكرت الشواهد الأثرية قضية تغير مركز الحكم من (ايريدو) وهي أقدم مدينة إلى (إيريش) والتي أصبحت المركز الرئيسي للحضارة في الجنوب، نظراً لأن (إيريدو) كانت قد هجرت منذ زمن طويل وربما كان سبب هجرها تَملُّح التربة نتيجة لاستعمال طرق وتقنيات خاطئة في الري. هذا وإن هذا التغير الذي حصل من (ايريدو) إلى (أيريش) قد انعكس أيضاً في إحدى القصص الخرافية التي مفادها أن إنين Innin إلهة إيريش قد ذهبت في زيارة إلى ابزو Abzu وهو مزار والدها انكي Inki في (ايريدو) حيث قدم لها إنكي الضيافة المناسبة وقد شرب انكي كثيراً من الخمر طبقاً للأسلوب السومري حتى أصبح ثملاً عندها أظهر كرمه الفائق فأفاض على إنين هباته التي زادت على مئة هبة تتألف من المفاهيم السومرية الأساسية وثقافتها وتشمل هذه الهبات أشياء كثيرة كالملكية والعدالة والصدق والكذب والزنا الطقوسي والموسيقى وعدد من الحرف والحكمة والفهم. ولقد حملت أنين جميع هذه الهدايا ووضعتها في قارب، ورغم محاولة انكي استرجاع هذه الهدايا بعد أن زال تأثير الخمر عنه، إلا أن أنين نجحت في نقل هذه الهدايا إلى مدينة (إيديسن) بأمان.

وطبقاً لما تؤكده معلومات علم الآثار كانت إيريش ذات أهمية عظيمة ولكن هذه الشواهد إنما تخبرنا عن نواح عامة فحسب. إذ عند وصولنا إلى فترة الأسر الأولى يساعدنا الحظ في التعرف على صورة ظليلية للحوادث الفعلية التي حدثت في إيريش وجميع منطقة ما بين النهرين إلى حد ما. إذ إننا مدينون إلى تلك الحقيقة التي

مفادها أن مدرسة من الكتاب البطوليين قد ظهرت في إيريش والتي كانت قصائدهم المعروفة تعود إلى الألف الثاني وهي تشمل التقاليد القديمة لتلك المدينة وحكامها. وهذه القصائد البطولية تعود إلى الأسرة الثانية القديمة أو بداية الأسرة الثالثة.

ويشير مصدر آخر بأسلوب خيالي إلى فترة أقدم من تلك وهي فترة القصص الخرافية وقصص سلوك مغامرات الآلهة التي يُظن بأنها تعكس الحالة الاجتماعية وذلك الزمن الذي توطدت فيه أحوال المجتمع السومري في الدول - المدن أي وطبقاً للاصطلاحات الأثرية الأسر الأولى القديمة أو حتى (جمدت نصر).

ولقد استخدم جاكوبسين Jacobsen من شيكاغو في دراستين عميقتين هذه القصص الخرافية البطولية لربط الشواهد الأثرية وذلك لتقديم صورة عن المنطقة سياسياً واجتماعياً وعن التطورات في سومر أثناء فترة الأُسَر الأولى. وللأسف هناك أساليب وطرازات خاصة في دراسة المجتمع العام كما هو الحال في كل شيء آخر. وإن وجهة نظر جاكوبسين عن المجتمع السومري القديم الذي حكم تقريباً دون منازع مدة عقدين من الزمن، إلا أنه انتقد لكونه غير كفؤ مع أنه لم يظهر أي شخص آخر ينقص آراء جاكوبسين ككل ولم يظهر إلى النور أي شاهد جديد هام وهكذا فقد أصبحت أساليبه مقبولة الآن وطبقاً لأراء ومحاولات جاكوبسين بالنسبة للمجتمع السومري القديم كانت السيادة المطلقة تنحصر في الجمعية العامة التي تشمل جميع المواطنين وربما أنها كانت تشمل النساء أيضاً فضلاً عن الرجال الذين كانوا يتجمعون لتقرير ما ينبغي عمله في حالة الطوارئ. وكان باستطاعة جميع المواطنين التكلم ولكن إرادة كبار السن كانت تؤخذ بعين الاعتبار أكثر من آراء الآخرين ولقد تستمر المناقشات حتى يتم الاتفاق بالإجماع. ولم يكن هناك مشكلة عمل لتصويت وأخذ آراء الأكثرية فقد كان القرار الأخير يُعلن رسمياً من قبل مجموعة صغيرة تدعى صانعي القانون ومن بين القرارات العتيدة التي كان من واجب الجمعية العامة اتخاذها اختيار موظف طقوسي يدعى باللغة السومرية أين En وهذه الكلمة أصبحت مرادفة لكلمة لورد

فيما بعد. ففي فترة الأسر الأولى كان هذا الشخص موظفاً طقوسياً طبقاً لحالة ما إذا كان للمدينة إله مذكر أو إلهة مؤنثة. وكان هذا الإله يعيش في منطقة تدعى ايجبار Egipar وتدعى باللغة الأكادية جبارو Giparu وكان مقام الإله أو الآلهة ملحقاً بالمعبد. وكان الإين En هو الذي يلعب الدور الرئيسي في حفلات الزواج المقدس التي كانت تعتمد عليها خصوبة أراضي الدولة - المدينة. ففي المدن مثل إيريش التي كان الاين En فيها ذكراً كانت وظائفها الثانوية والإدارية المتصلة بأراضي المعبد تقدم له أهمية سياسية مما جعله في إحدى المراحل يصبح هو الحاكم. وهناك مثال على هذا اسم الاين En جلجامش. هذا وقد حدثت في الأزمنة المبكرة بعض الخلافات والتقسيمات ما بين وظائف الاين En الكهنية ووظائفه العلمانية وفي حوالي منتصف فترة الأسر الأولى أصبح مسكن الاين En في قصر خاص به، حيث سرعان ما اتخذ لنفسه بطانة تشمل الكتبة والطباخين وسُقاة الخمر والحرفيين والموسيقيين وموظفي البلاط العاديين. وفي نهاية الفترة الأسرية الأولى لم يعد الحاكم الحقيقي (كما يظهر في نصوص لاغاش) هو الاين En بل موظف آخر كان مهتماً بالشؤون الزراعية وكان يحمل لقب إنسي Ensi. أما الوظائف الطقوسية الأخرى فقد عُهد بها إلى كاهن خاص أو كاهنة خاصة.

وفي حالة تعرض المملكة إلى هجوم خارجي كان على الجمعية العامة اختيار زعيم حربي أو ملك (وهو يسمى بالسومرية لوجال Lugal أي الرجل العظيم أو من يدير شؤون البيت العظيم) ولم يكن مكان إقامة هذا في المعبد وربما كان يعتبر موظفاً علمانياً ولم تكن وظيفة الاين En أو اللوجال Lugal وراثية أو دائمة بل كانت وظيفة اللوجال تنحصر في أوقات الشدة والاضطراب فحسب.

يعتبر جاكوبسين أن هذا النموذج الذي يدعى بالديمقراطية البدائية قد امتد من الدول - المدن حتى بلاد سومر حيث أصبحت هذه الحالة تعتبر كينونة سياسية. وإن أسباب جاكوبسين الخاصة هي المركز الغريب الذي كانت تتمتع به (نيبور) وهي مدينة الإله (إنليل) فقد كان لهذه المدينة أهمية خاصة، نظراً لأنه وخلال التاريخ السومري كان ملوك الدول المختلفة ينالون سلطتهم من الاعتراف ليس بإله

مدينتهم بل بإنليل إله (نيبور). وكان الاسم السومري لكلمة سومر يدل على اسم نيبور ويمكن تفسير مثل هذه الحقائق لو أن (نيبور) قد أصبحت هي المهيمنة على جميع منطقة سومر ولكن ليس هناك من برهان على هذا الوضع وذلك لأن القصص والتقاليد وكذلك الشواهد من علم الآثار لا تشير إلى شيء من ذلك. ولذلك فقد اقترح أن نيبور قد حصلت على هذا الواقع الخاص لكونها قد أصبحت المكان المقدس الذي كان يهرع إليه جميع النبلاء والعظماء في المدن السومرية لكي ينتخبوا لهم سيداً للحرب في أوقات الشدة والحروب.

ولا شك أن مثل هذه المرحلة التي تدخل في تطور المنظمات السياسية معروفة في بعض الثقافات الأخرى وأن التاريخ الذي وجدت فيه ربما حدث بعد ارتفاع مكانة (نيبور) لتصبح مدينة كبيرة قد نشأت في فترة (جمدت نصر) وليس في زمن أبعد من أوائل الأسرة الثانية عندما شوهد وجود أسوار عالية للمدينة الأمر الذي يدل أن المدن السومرية قد انتابها الشعور أنها قد أصبحت في عداء متبادل، أو أنها قد أصبحت تبذل محاولات لعمل ترتيبات دفاعية ضد عدو خارجي. ويعزو جاكوبسين إنشاء عصبة نيبور المقترحة إلى خطط الساميين الغزاة الذين اتجهوا شمالاً حيث الأماكن الضعيفة الدفاع. ودعماً لهذه الفرضية هناك شواهد وافرة تدل على الاحتلال الأكادي (وهو احتلال سامي) في منطقة نهر ديالا ابتداءً من فترة الأسرة الثانية فصاعداً. ومن الممكن أن تكون هذه الموجة من الموجات السامية قد ظهرت في بابل في أوائل فترة الأسرة الأولى.

ويشير جاكوبسين أنه عند تعيين الاين En أو اللوجال Lugal فإن أياً منهما سوف يتجاوز الحدود التي مُنحت له حتى بعد انتهاء فترات الشدة والحرب وإن وظيفة الاين En واللوجال Lugal تمنح لنفس الرجل وإن هذا الميل لنشوء فكرة الملكية الدائمة قد ظهر في تلك الأسطورة التي تصف الإله المحارب نينوترا وهو يقود مجموعة من الجنود كان يصطحبهم للغزو في أماكن تقع فيما وراء حدود دولته بينما في داخل الدولة فهو يتخذ وضع المدافع عن المظلومين وهو لا يتحمل وجود أي

شخص معارض لسلطته وتقول الأسطورة إنه عندما تقابلت النباتات لاختيار ملك لها فإن نينوترا قد تغلب على منافسه وسَحَقه في المعركة وقضى على المعارضة.

ومع ذلك وعندما جُعل الاين En أو اللوجال Lugal وظيفة كل منهما دائمة لم يكن أي منهما حاكماً مستبداً. مثلاً فإن جلجامش وهو اين En ايريش عندما رغب في إعلان الحرب على آغا Agga من كيش فقد استشار الشيوخ أولاً والذين كانوا يوصفون بأنهم مستشارون وكانوا هم بالفعل رؤساء المجموعة القبلية وعندما عارضه هؤلاء قام جلجامش بدعوة جمعية عامة تتألف من جميع المواطنين الذكور (لم يُذكر عن اشتراك الإناث) وبذلك حصل على الموافقة وعندها أصبح قادراً على تنفيذ الإجراءات التي خطط لها.

إن المرحلة التي أصبح فيها الاين En حاكماً بشكل دائم ولكن ليس حاكماً مستبداً ربما تعود إلى أوائل فترة السلالة الثالثة أو بداية الفترة الثالثة التي تعود إليها معظم القصص البطولية السومرية. وبينما كانت الأساطير تتركز حول الآلهة، إلا أن الأساطير البطولية كانت تتركز في الكائنات البشرية أو شبه البشرية من الأبطال مثلاً اينمركار Enmerkar وهو اين En ايريش أن يبني ويزين أحد الأضرحة التابعة لحاميته وهي الإلهة انين Innin باللازورد وقد كانت هذه الإلهة عمته وإن العلاقة الحميمة بين هذا البطل والإلهة توحي أن هذه القصة قد أتت من أوائل فترة الأشعار البطولية. وللدلالة على نواياه الطيبة أرسل اينمركار رسالة إلى حاكم (أراتا) Aratta التي تقع على بعد سبعة سلاسل من الجبال شرقاً طلب منه إرسال كمية من اللازورد والخشب وأرسل له مقابل ذلك قافلة من الحمير محملة بالشعير الذي كان متوفراً في أرض سومر. وكان منظر قافلة الحمير المحملة بالشعير وهي تسير خلال الجبال يشبه أسراباً من النمل الخارجة من جحورها. ولقد أدعى اين أراتا Aratta أيضاً أنه واقع تحت حماية أنين Innin وهكذا تعكس القصيدة إحدى التقاليد العائدة إلى ثقافة دينية واقتصادية عامة تغطي أخبار جميع تلك المنطقة ابتداء من الفرات حتى جبال بلاد فارس ولقد أيد وجهة النظر هذه بعض الشهادات من علم الآثار حول ثقافة هذه المنطقة في ذلك الزمن. ومن المهم أن نقول

إنه ومن خلال الخصام الذي حدث ما بين أينمركار Enmerkar واين اراتا Arata لم تكن الحرب هي الحل الأخير بالنسبة لهذه المشكلة. وهذا يتفق مرة ثانية مع الشواهد من علم الآثار نظراً لأنه لم يحدث حتى أوائل الأسرة الثانية أن انتشرت فكرة تحصين المدن الأمر الذي يدل على وجود فكرة الحروب ما بين الدويلات الداخلية. ولقد وُظِف هذا التطور في قصيدة بطولية أخرى تعود إلى أحد خلفاء اينمركار وهو ثالث حفيد ويدعى جلجامش باني السور الخارجي العظيم في ايريش ومع أن أراضي إيريش (طبقاً للقصائد البطولية) قد غزاها البدو من الساميين منذ عهد اينمركار إلا أنه لم يحدث حتى عهد جلجامش أن بدأت شؤون الحصار بين المدن تطفو على السطح وتظهر. وقد كان الظرف الحقيقي كما نعلم من قصة بطولية أخرى كان أن هوجمت مدينة جلجامش المسورة من قبل آغا Agga ملك كيش.

لقد كانت (كيش) وطبقاً لقائمة الملوك السومريين مركز السلالة الأولى في شمال بابل بعد حادثة الطوفان. لقد حدثت الحفريات في هذه المدينة حتى الأرض البكر. حتى بعض البقايا من العصر الحجري الحديث الذي لم تكن له أية علاقة بأي ثقافة من ثقافات منطقة ما بين النهرين، إلا أن أول عهد من عهود الاستيطان كان في فترة (جمدت نصر) فقد استؤنف السكن في ذلك الموقع الذي يعود تاريخه إلى العصر الحجري الحديث، وربما كان ذلك خلال التوسع السومري الناتج عن التقدم التقني في فترة (أوروك) مع أنه من الملاحظ أن الخلفية الثقافية في (كيش) لم تكن سومرية صرفة، حتى إن بعض الحكام الأوائل في كيش كانوا يحملون أسماء سامية، بينما كان هناك ملامح من الفنون والعمارة المدنية، الأمر الذي يدل على وجود تقاليد مشتقة من تلك التي كانت سائدة في المدن الجنوبية. ومن الممكن تفسير تلك الحقائق بالافتراض أنه وفي حوالي نهاية فترة (جمدت نصر)، أتت موجة من الساميين من بلاد العرب أو سوريا وأسست مدينة (كيش) ومدينة (ماري) وكانت في أواسط منطقة الفرات ولدينا شواهد حقيقية عن وجودها. وقد ذُكر هؤلاء الغزاة الساميون في الأدب البطولي حيث ذُكر أن

أمريكار اين Enemrkar وهو الـ En لمدينة ايريش قد ضايقه شعب المارتو Martu (وهم شعب من الساميين أتوا من الغرب) وأطلق عليهم هذا الاسم السومري وكان هؤلاء يهاجمون البلاد ومع ذلك فقد تم استيعابهم في المجتمع السومري وذلك لاتصالهم بالسكان الأصليين المتحضرين، ولذلك فقد أطلق على الحكام الأواخر في كيش أسماء سومرية وكانت فترة الاستيعاب وربما الاحتقار والإزدراء الذي أظهره سكان المدن السومرية المتحضرة تجاه أولئك البرابرة الذين هاجموا البلاد ولكن قدر لهم أن يعرفوا ثقافتها، انعكس كل ذلك في الأساطير السومرية وتقول إحدى هذه الأساطير إن الإله مارتو Martu الذي كان يحمل الاسم الذي يعرف به البدو الساميون، قد طلب الزواج من الفتاة من كازالو Kazallu وهي مدينة سومرية شمالية وتقول القصة إن أحد أقارب هذه الفتاة قال لها إن مارتو يأكل اللحم النيئ وليس له منزل يعيش فيه وبعد موته سوف يظل مطروحاً دون أن يُدفن، ولكن ورغم هذه التحذيرات فقد قبلت الفتاة الزواج من مارتو لأنها لم تخشَ شيئاً. وهكذا تم الزواج وهذه القصة تدل على تمازج الأعراق.

كانت (كيش) بالتأكيد أهم مركز في منطقة شمال بابل في فترة الأسرة الأولى وبعد ذلك وحتى وبعد أن توقفت عن أن تكون عاصمة أسرية، بقي اسمها مذكوراً في القاب أي حاكم كان يدعي الهيمنة على جميع منطقة بابل.

ويقدم جاكوبسين اقتراحاً ممتعاً وهو أن آغا Agga ملك كيش قد أصبح في وضع قوي استطاع فيه أن يمارس بعض السلطات على الدول - المدن باتجاه الجنوب وأنه وفي أثناء الحروب ما بين آغا وجلجامش كان الأخير أي جلجامش يعتبر تابعاً متمرداً. هذا وإن محاولة خلق وحدة سياسية متفوقة على الدولة - المدينة، كانت نتيجة لازدياد السلطة الملكية. فقد كان لدى الملك بطانة وأتباع عن مختلف المدن حيث كان الخدم والموظفون مدينين بالطاعة للملك وليس للمدينة التي خدموا فيها. وهناك شاهد مؤيد لهذه النظرية وذلك من بعض الوثائق الاقتصادية الكافية لحبك بعض التفاصيل حول الحياة المعاصرة وقد وجدت ألواح قديمة في عدد من المواقع نذكر أهمها من الأقدم حتى الأحدث.

١. الطبقة ٤أ في ايريش وهي طبقة أوروك الرابعة ويعاصر هذه الطبقة لوح من الحجر الكلسي في كيش.

٢. الطبقة الثالثة والثانية في ايريش وجدت فيها ألواح تعود إلى مواقع (جمدت نصر) وتل عقير uqair.

٣. ألواح من أور (فترة الأسرة الأولىI)

٤. الطبقة الأولى من ايريش. ألواح من فارى Fara (فترة الأسرة الأولى III)

وهناك بعض الشكوك بالنسبة للصياغة اللغوية وخصوصاً بالنسبة لألواح أوروك ٤أ وحتى هنا فإن الكتابة التصويرية تجعل من السهل تقديم تخمينات مقبولة بالنسبة للمحتويات في بعض الحالات. هذا وإن أقدم الكتابات التي من الممكن البرهنة على أنها سومرية قد أتت من مجموعة (جمدت نصر) وهي مجموعة مؤلفة من ثلاثة إشارات يمكن تمثيلها بالأحرف X,y,Z والإشارتان X,y كانتا تقرآن وكأنهما سومرية نظراً لأن كلمة إنليل هي ترجمة حرفية لجملة تدل وبنفس الإشارات على حرف Z وهي تدل في لغات أقدم من هذه على صورة سهم ولكن هناك نصوص قليلة كان فيها سهم يدل على سيد الهواء. ولهذا ينبغي على المرء أن يفتش عن لغة يكون فيها كلمة سهم لها معنى مناسب. وإن مثل هذه اللغة هي سومرية فيها الأحرف ti والتي تمثل تمثيلاً مختلفاً في فترات متأخرة وهي مشتقة من الأحرف المصورة التي دعوناها Z وهي تعني كلمة سهم أو كلمة حياة أو يعيش. فإذا قرأنا الإشارة Z بشكل Ti فإن ذلك يعطينا جملة ذات معنى نظراً لأن إنليل يعطي الحياة وهو يمثل اسم علم معروف خلال الحضارة السومرية والبابلية. وإن مجموعة X,y,Z تقرأ باللغة السورية بشكل En. Lil. Ti وهذه تشبه لغة النصوص في فترة (جمدت نصر).

هذا وإن الألواح المفهومة من هذا الزمن فصاعداً هي على نوعين. ومن الممكن تفسيرها باسم اقتصادي أو أدبي وإن اسم أدبي في هذه المرحلة هو اسم رنان نظراً

لأن الألواح من هذا النوع تتألف من قوائم من الأشياء مثلاً أنواع من السمك أو الطيور أو الحيوانات أو النباتات أو الآلهة التي تشكل أشكالاً بدائية.

إن المصدر الرئيسي لمثل هذه الألواح (الأدبية) كان من فارا Fara وهو موقع شوروباك Shuruppak القديم وهي الوطن البابلي لنظير نوح. ولكن لا يعرف إلا القليل من هذه الأنواع في المواقع الأخرى. ولذلك ليست النصوص الأدبية بل الاقتصادية هي التي تكشف شواهد معاصرة لفترة الأسرة الثالثة. وبعض هذه النصوص هي سجلات وجدت في قصر فارا وقد ذكر فيه أشخاص من الموظفين من جميع الأنواع. وكما يشر جاكوبسين فإن الأعداد كبيرة بشكل لا يُصدق فهناك مثلاً ١٤٤ من سقاة الخمر و٦٥ طباخاً وهذا يشبه وضع فرق عسكرية منظمة بشكل منازل وبيوت وقد تأكد هذا التفسير بالحقيقة التي مفادها أن السجلات في هذا العصر تحتوي أيضاً على مراجع فيها ذكر لاصطلاح العربات الحربية وقوائم من الفرق العسكرية الذاهبة إلى ميدان القتال. وهذا يؤيد ذلك الاستنتاج الذي مفاده أنه في أوائل الأسرة الثالثة تطور الملوك بحيث أصبحوا يحتفظون بحاميات متواجدة عندهم في المدن الرئيسية. ومن الواضح أيضاً أنه وكما يظهر في الملحمة البطولية لجلجامش وآغا Agga إن ميزان القوة بالنسبة للملك كان متقلقلاً مشكوكاً فيه وإنه كان من الممكن لأية مدينة أن تتحدى الملك. ومن الزمن الذي بدأت فيه أول النقوش التاريخية (حوالي منتصف فترة السلالة الثالثة) يلاحظ فشل محاولة كيش لإنشاء قوة ملكية واسعة النطاق وهكذا بقيت سومر مؤلفة من عدد من الممالك المستقلة والدول - المدن.

وفي داخل الدول - المدن السومرية والتي نقابلها لأول مرة في النقوش التاريخية كان لكل دولة حاكمها الخاص بها ويدعى الأنسي Ensi ويبدو أن هذا اللقب كان يدل على القائد المسؤول عن تنظيم السكان للعمل في المواسم الزراعية ولم يكن لقب لوجال Lygal يُطلق إلا على الملك الذي تتجاوز سلطته حدود بلاده لتصل إلى مدن أخرى. وتعرف أسماء كثير من حكام هذه الدويلات - المدن من قائمة الملوك السومريين ومن النقوش التي تصف الإهداءات التي كانت ترسل للمعابد من

الملوك أنفسهم. ولكن المدينة التي تمت لنا معرفة أحوالها بشكل أفضل من هذه الناحية هي مدينة لاغاش Lagash حيث نعرف الكثير من مجرى الأمور في هذه المدينة مما يعطينا فكرة عن الحياة السومرية وتاريخها بأجمعه اعتباراً من منتصف الألف الثالث ق.م فصاعداً.

إن موقع لاغاش المعروف الآن باسم تلو Tello لا يزال في منطقة شديدة الخصب تحتوي على شبكات من قنوات الري التي تغذيها قناة شط الحي Shatt-el- Hai والتي تصل دجلة بالفرات وكانت هذه القناة في الزمن القديم بالإضافة إلى قناة أخرى كانت تدعى لوما جيرنون Lumma girnun تؤمن للاغاش ليس المحاصيل الوافرة فحسب، بل كانت توفر لها تجارة نهرية ناجحة وبالنتيجة توفر لها الرخاء والازدهار الاقتصادي. وإن مثل هذا الاستقرار الاقتصادي والاجتماعي قد وفر لهذه الأسرة التي أنشأها شخص يدعى أورنانشي Ur Nanshe الذي استطاع أن يستمر في الحكم مع أحفاده دون انقطاع خلال ستة ملوك لمدة تزيد عن القرن.

وهناك مدينة مجاورة تدعى أوما Umma وهي واقعة أيضاً على شط الحي Shatt-el-Hai وهي واقعة إلى شمال لاغاش من الجانب الآخر من لوما جرنون Lumma girnun.

ولما كان اتجاه مجرى شط الحي Shutt-el-Hai من الشمال إلى الجنوب فقد أصبحت أوما Umma هي المتحكمة بموارد الماء إلى لاغاش. وهذا هو سبب نشوء الخصام ما بين المدينتين في عدة مناسبات وإن الوثائق هي التي سجلت الظروف التي أحاطت بمثل تلك الحوادث وهي التي تقدم القصص الأولى الحقيقة التي تبدأ في الفترة بعد عام ٢٥٠٠ق.م بقليل. وإن أقدم تلك الوثائق هي بعض النقوش التي تعود إلى ايناتوم Eannatum وهو ثالث حاكم من تلك السلالة. وهو عبارة عن نقش نافر حجري نُصب لتخليد انتصاره على أوما Umma ويعرف ذلك النصب باسم مسلة الطيور الجارحة وهي تذكر تلك التفاصيل الدموية التي تُظهر بعض الطيور الجارحة التي كانت تتقاتل للحصول على أحشاء القتلى في المعركة التي قاد فيها ايناتوم مدينته إلى النصر. وبعد زمن قليل وجد نقش مخروطي لانتيمينا Entemena حيث

يقدم ابن أخ ايناتوم تاريخاً وحيد الجانب يصف النزاع ما بين أوما ولاغاش والذي استمر عدة أجيال. إن مثل هذه السجلات تقدم تلميحاً يصف المظاهر الواسعة للتنظيمات السياسية السومرية وهي تحل محل ما نعرفه من قائمة الملوك السومريين من نصوص أدبية واقتصادية. وإن النقوش الخاصة بكل من ايناتوم Eannatum وانتمينا En temena تذكر حادثة لنزاع اشترك فيه مي سيلم Me Silim ملك كيش بصفته الحكم وهو الذي وضع شروط السلام وبنى سوراً فاصلاً بين أراضي المدينتين. ومن الواضح أنه قد مارس نوعاً من الهيمنة ولا يعرف التاريخ الدقيق لمي سليم ولكنه كان بالتأكيد شخصية تاريخية ربما كان قبل قرن أو أكثر من انياتوم ولم يذكر اسمه وذلك لأسباب تاريخية أو بسبب عدم ورود اسمه في قائمة الملوك السومرية. ولكن من المؤكد أن مي سيلم Me Silm كان ملك كيش نفسها في زمن محاولة تلك المدينة السيطرة على جميع أراضي سومر الأكثر احتمالاً أنه كان ملكاً لدولة مدينة أخرى سيطرت على الأقل على جزء من منطقة (أكاد) ونتيجة لذلك فقد وهبه الإله إنليل إله نيبور ذلك اللقب القديم المرموق وهو ملك كيش. وربما دل هذا على محاولات ناجحة لغرض السيطرة على جميع أراضي سومر وذلك بعد انقضاء حكم آغا Agga في كيش.

هناك مدينة أخرى ربما قد مارست بعض الهيمنة المؤقتة وهي مدينة أور وهناك إحدى سلالات أور وهي مذكورة في قائمة الملوك السومريين في إحدى الفترات الزمنية المقابلة للسلالة الثالثة بالنسبة للمصطلحات الفنية الأثرية. وإن بعض حكام هذه السلالة التي يشار إليها بأنها أولى سلالات أور معروفون من النقوش المعاصرة. وتأتي من بداية هذه الفترة (القبور الملكية) في أور وهي التي تشتهر بمحتوياتها والمهمة بالنسبة لدراسة تاريخ الأديان، مع أنها ليست ذات أهمية لنا بالنسبة لمعارفنا السياسية والاجتماعية.

كانت الحكومة في الدول - المدن السومرية في ذلك الوقت ثيوقراطية دينية. فقد كانت جميع أراضي المدينة تقريباً تخص المعبد. وكان الأنسي Ensi وهو مساعد مأمور التنفيذ أو ما يسمى بالشريف بالنسبة لآلهة المدينة. وكان هذا

الشريف وعائلته يديرون أملاك المعبد مع نخبة من الموظفين الذين كانوا يتعاقبون في العمل بالوراثة. ومن المحتمل أن يُنتخب الأنسي من قبل المواطنين الأحرار. ولكن وفي منتصف الألف الثالث ق.م أصبحت هذه الوظيفة وراثية في لاغاش على الأقل.

كانت أراضي المعبد مُقسمة إلى ثلاث فئات سوف نقدم لها وصفاً فيما بعد، وقد تألفت إحدى هذه الفئات من الأراضي التي تؤجر على أساس الحصص ويدفع الإيجار بقيمة ثلث المنتوج وكان سدس هذا المبلغ يُدفع بالعملة الفضية والباقي بشكل سلع وليس نقداً ومع أن الملكية الخاصة للأراضي كانت نادرة جداً حتى نهاية الألف الثالث ق.م. إلا أن هذا النظام قد سمح بتراكم الثروة لدى بعض الأفراد. وبنفس الوقت لقد عملت المغامرات العسكرية في لاغاش تحت إدارة ايناتوم Eannatum على تقوية سلطة (الأنسي) وكذلك فقد زادت هيبة وقوة الياناتوم Eannatum نفسه بحيث أصبح عضواً في مجمع الآلهة السومرية ولقد قلبت هذه الأعمال التوازن في الاقتصاد فحدثت بعض التغيرات التي اعتبرها بعض الناس نوعاً من المساوئ.

ونظراً لأن النظام كان مركباً من عناصر اشتراكية وعناصر رأسمالية فإنه من الممكن أن ننظر لهذه الميادين كنتيجة لهذين العنصرين ولكن تقدمت بعض الشكاوى الرئيسية ومنها شكوى تقول أن الأنسي كان يتعامل مع أراضي المعبد وممتلكات الإله كأنها أملاكه الخاصة وأصبح المواطنون يرزحون تحت عبء الضرائب الباهظة التي كان يجمعها الأنسي وموظفو المعبد لتشمل جميع مظاهر الحياة والموت.

وكانت الضرائب تجبى عن المواشي ومصائد الأسماك، والأغنام والطلاق ومراسم الدفن، وهكذا فقد ظهرت طبقة من الأغنياء الذين اغتنوا بسبب تحسن الحالة الاقتصادية وقد استطاع هؤلاء استغلال الفقراء خاصة عندما كان هؤلاء الفقراء يستدينون منهم. فكان الغني يُقدم قرضاً للفقير وفي وقت غير مناسب كان هذا الغني يطالب باسترداد ديونه وعندها يسوق الحيوانات التي يريدها ويأخذ الأغراض الموجودة لدى الفقير المدين مما يزيد كثيراً عن قيمة الديون التي عليه.

ومن الممكن أنه وكنتيجة لتمزق الوضع الاقتصادي في لاغاش فقد انقرضت وانتهت أسرة أور ـ نانشي Ur-Nanshe وفي حوالي زمن نهايتها ظهرت قوة علمانية متميزة عن السلطات الدينية. وقد انعكس هذا على التطورات السياسية، فقد حدث نضال ما بين الكهنة والارستقراطية بسبب محاولة تملك أملاك المعبد فقد حاول انسي Ensi تقوية سيطرته من خلال الاستيلاء على أملاك المعبد.

ولقد حاول يوروكاغينا Urukagina وهو أحد من استلم السلطة في هذه الفترة أي بعد نهاية أسرة أور ـ نانشي أن يقوم ببعض الخطوات لمعالجة المخازي والفساد الذي حدث ولإعادة الأحوال إلى ما كانت عليه. وهو يسجل في أحد النقوش بعض الإجراءات التي قرر إجراءها وخصوصاً إنقاص الضرائب الظالمة وظلم الضعفاء والفقراء وكانت تلك الإجراءات كما يلي:

**ـ لا يجوز لأي كاهن دخول حديقة أحد الفلاحين أو قطع أشجارها أو نزع ثمارها.**

**ـ إذا كان لدى الفلاح أتان ووراءها فلوها وأراد السيد الحامي شراء تلك الأتان، عندها ينبغي على الفلاح أن يحدد الثمن بالفضة ويقبض الثمن. أما إذا رفض الفلاح بيع الأتان فلا يجوز للسيد أن يضربه.**

**ـ إذا كان لدى الفلاح بركة سمك فلا يجوز لأي واحد من الأسياد أن يأخذ البركة أو أن يأخذ السمك من بركة الفلاح.**

وفي فقرة أخرى من تلك التنظيمات منع المراقبون لأحوال المواشي ومصائد الأسماك من استيفاء مدخول مباشر من منتوجات الفلاحين أصبح عليهم أن يأخذوا مدخولهم من إدارة شؤون المعبد. ولقد ذكرت الأرقام المطلوبة لإنقاص مبالغ الضرائب بالنسبة لشؤون الزواج والطلاق ومراسم الدفن ولقد وضع إصلاح مالي بالنسبة لتربية المواشي. ومع ذلك فلم تستطع هذه القوانين إحداث التحسين الاقتصادي والتوازن والاستقرار وهكذا فقد سقط يوروكاغينا UruKagina كضحية بسبب تلك المنافسات التي كانت متواجدة دوماً ما بين لاغاش ومدينة أوما

Umma المجاورة والتي استطاع ملكها لوجال زاغيسي Lugal-zagesi التغلب على لاغاش وتدميرها بعد عام ٢٤٠٠ ق.م. ولقد اتبع لوجال زاغيسي Lugal-zagesi هذا سياسة متسمة بالانتصارات العسكرية بحيث أصبحت منطقة سومر جميعها تحت قبضة يده، بعد أن أصبحت ايريش عاصمة له فلم يكن السيد المطلق في سومر فقط ولكن انتشر نفوذه إلى خارج حدوده ابتداءً من الخليج العربي بمحاذاة نهر الفرات ودجلة حتى البحر الأبيض المتوسط، حتى أن جميع الحكام المستقلين في سومر والانسي Ensis في جميع البلدان المستقلة كانوا ينحنون إجلالاً لحكمه في ايريش. ويشير جاكوبسين إلى أنه ربما كانت هذه الصورة مثالية وليس من الضروري أن تكون متوافقة كلياً مع الحقائق السياسية، إلا أنها تدل على أن الحالة المثالية تنحصر في إحلال السلم الداخلي تحت حكم ملك يمتلك تلك القوة الكافية لردع جميع المنافسين وأن يتوفر السلم خارجاً من خلال حاكم ذي نفوذ يؤهله ليصبح مقبولاً بشكل يصبح به وسيطاً لدى العالم بأجمعه ولكن توسعات لوجال زاغيسي السياسية كانت لا شك لا تمثل ظاهرة جديدة فحسب، فقد كان هناك منذ زمن آغا Agga من كيش محاولات لفرض الهيمنة والسيطرة على مناطق واسعة. فقد مارس أحد حكام أور المعاصرين لأورنانشي Ur-Nanshe السيطرة على بعض المدن الواقعة على الأقل حتى نيبور، بينما هناك شواهد أنه خلال حكم اينانتوم Eannatum قامت جيوش مملكة ماري الواقعة في أواسط حوض الفرات باختراق المنطقة جنوباً حتى لاغاش. وهكذا حاول لوجال زاغيسي الحصول على السيطرة المباشرة وعلى جميع منطقة بابل وذلك بإخضاع كيش التي أصبحت مرة ثانية المدينة البارزة المتفوقة في شمال منطقة بابل وكان من الممكن أن ينجح بشكل مؤقت نظراً لأن قائمة الملوك السومريين تمثل أعماله وكأنها تغييرات في الأسرة ولكن الحقيقة أنه هو نفسه قد هُزم بعد وقت قصير على يد شاروم كِن Sharrum-Kin (سرجون) الذي كان الوزير السابق لأحد ملوك كيش.

إن اسم شاروم كِن هو اسم سامي وكانت الأسرة التي أسسها أسرة سامية وهناك مثل عربي مفاده أن الصحراء هي مهد العرب والعراق هي قبر العرب وهذا

المثل يعرفنا بتلك الحقيقة وهي أنه من خلال مراحل التاريخ تتابعت أمواج متتالية من الساميين من الصحراء قد سبقت أو أجبرت على المجيء إلى الوديان الخصيبة في الشمال الشرقي حيث تمثلت هذه الأقوام واختلطت بالشعوب المستقرة. ولقد أشير إلى هذه العملية في وقت أقدم في الألف الثالث ق.م وكانت هذه العملية تحدث دوماً في زمن حكم شاروم - كن (٢٣٧١- ٢٣١٦ق.م) ولقد تصدى الكتاب القدماء لذكر التطورات التالية واعتبارها مصادمات عرقية ما بين الساميين والسومريين ولكن هذا لا يتفق مع الحقائق. وتحتوي النصوص التي تعود إلى ما قبل زمن شاروم كن قوائم من الأسماء الشخصية كان نصفهم سومريين ونصفهم ساميين وهذا يدل على أن الجماعتين العرقيتين كانتا تعيشان بسلام جنباً إلى جنب. وليس هناك من شاهد في ذلك الوقت يدل على حدوث أية غزوه سامية فالساميون الذين أتوا من الصحراء إنما قد أتوا بشكل عائلات منفصلة وأقاموا في المدن السومرية وتشربوا بالثقافة السومرية بسرعة ودانوا بالولاء للدول - المدن التي التصقوا بها وسكنوا فيها. ولأسباب جغرافية نجد أن نفوذ الساميين الذين حضروا بهذا الشكل كان أقوى تأثيراً في الجزء الشمالي من البلاد من الجزء الجنوبي فلقد شعر الناس بالنفوذ الاجتماعي واللغوي للساميين في أقرب وقت. وهكذا فإن بعض حكام كيش والبعض فقط، قد حملوا أسماء سامية، بينما كان آخر ملوك كيش الذي كان وزيره شاروم كن السامي يحمل اسماً سومرياً، وكشاهد قوي على عدم وجود أي نوع من التحيز العنصري يمكننا أن نذكر أن تمثال الملك السومري لوجال زاغيسي Lugal Zagesi الموجود في معبد الإله السومري إنليل في أقدس المدن السومرية نيبور قد نقشت نقوشه وتمت ليس باللغة السومرية بل باللغة السامية الأكادية.

وكانت مدينة شاروم كن الخاصة هي آغاد Agade (لم يتم تحديدها بعد) وهو الذي أسس هذه المدينة وذلك عندما كان موظفاً إدارياً تحت إمرة ملك كيش. وعندما تذكر قائمة الملوك السومرية هذه المدينة وتذكر علاقتها بانتصار شاروم كن وكسره للوجال زاغيستي Lugal Zagesi فإن قائمة الملوك هذه تذكر أن

أوروك قد ضُربت بالسلاح وقد نقلت مركز الملكية إلى آغاد دون اقتراح عمل أي تغيير عدا نقل السلطة من إحدى الدول - المدن إلى مدينة أخرى.

ويدعي شاروم كن نفسه أن إنليل الإله السومري العظيم هو الذي حكم وقرر هذه القضية بينه وبين لوجال زاغيسي Lugal Zagesi بينما نلاحظ أن ألقاب شاروم كن تظهر أن الإلهة الرئيسية التي لها علاقة متينة بشاروم كن ما هي إلا إلهة سومرية.

إن الأسرة التي أسسها شاروم كن (وهذا يشار له غالباً باسم سرجون اغادو) مع أنها قد حكمت مدة تزيد قليلاً فقط عن قرن من الزمن (٢٣٧١- ٢٢٣٠) ق.م إلا أنها قد تركت آثاراً واضحة على تاريخ منطقة ما بين النهرين. وكان سرجون آغادو يهدف في سياسته إلى هدم جميع أسوار المدن الواقعة ضمن منطقة بابل وبذلك يحرم وجود أية حركات من التمرد أو اية مواقع تدعم هذه الحركات وهكذا يصبح بمقدوره تعيين مواطنين من آغاد في مناصب عالية في الإدارة تدعمها حاميات معتمد عليها ، وكان يهدف أيضاً لأخذ بعض أفراد العائلات الحاكمة وجلبهم إلى عاصمته كرهائن. وبذلك استطاع إضعاف الحكم الذاتي لبعض الدول – المدن وهيأ الطريق ومهدها للسيطرة المركزية على البلاد فيما بعد.

ولم يستطيع سرجون آغادو نفسه السيطرة على جميع منطقة سومر وأكاد وحسب، بل على مناطق كبيرة من الشرق الأدنى أيضاً. ولقد ازدهرت التجارة العالمية تحت حكمه وامتدت على الأقل من شواطئ البحر الأبيض المتوسط حتى الخليج الفارسي. وهناك قصص ظهرت فيما بعد تؤكد سيطرة سرجون آغادو على امبراطورية واسعة تشمل آسيا الصغرى وهناك نص معروف يشير إلى حدوث حملة حربية قام بها سرجون لحماية إحدى مستعمراته التجارية الموجودة في بوروش خانده BurushKhanda من اعتداء أحد الملوك في منطقة البحر الأبيض المتوسط.

ولقد تدخلت النصوص الأدبية بشكل قوي ليس بشؤون سرجون وحسب بل بشؤون خليفته الثالث وحفيده المدعو نارام سن Naram Sin (٢٢٩١- ٢٢٥٥ق.م)

الذي ذكر ليس في القصص الأدبية وحسب بل أيضاً في عدد من الأمثال الشعبية التي يحتوي أحدها على ما يلي:

إن الرياح الشرقية هي رياح الازدهار والنجاح وهي صديقة نارام سن الإلهي.

وبالنسبة لهذا الحاكم أيضاً هناك شواهد أثرية بالإضافة إلى النقوش التي خلفها نارام سن بنفسه تقدم دعماً للقصص والتقاليد الأدبية المذكورة وطبقاً، للنقوش التي خلفها نارام سن فقد أنزل هذا الملك الهزيمة العسكرية بماني Mani ملك ماجان Magan وهذا الادعاء يدل على أنه قد سيطر على جميع السواحل الغربية للخليج العربي حتى عمان على الأقل. وهناك بعض القصائد الشعرية التي ظهرت بعد قرون تمجد زمن حكم نارام سن عندما تتكلم عنه بما يلي:

لقد وُجدت الفيلة الهائلة والقرود الكبيرة الآتية من الأراضي البعيدة كلها متجمعة في الساحة العظمى لعاصمته.

وهذا يوحي بوجود علاقات تجارية مع الهند . فقد قام نارام سن بحملة عسكرية كبيرة وبذلك فقد أخضع القبائل الجبلية التي كانت تعرف باسم لولو Lullu حيث وضع هناك أثراً تذكارياً من النقوش النافرة المحفورة على وجه الصخرة التي لا تزال موجودة حتى الآن مع أنه قد تطرق إليها بعض

الأضرار (انظر اللوحة ١٦أ) ولقد بنى نارام سن قلعة عظيمة في تل براك لحراسة الطريق الذاهبة إلى آسيا الصغرى. ومن المحتمل وجود حامية حربية أخرى في نينوى فقد وجدت مسلة تحمل اسمه في ديار بكر شمالاً على حدود أرمينيا وهناك شواهد تدل على أن هذا الحاكم القادر قد عمل على إنشاء إدارة مركزية في إمبراطورية مؤلفة من مجموعة من الدول - المدن ونذكر بعض التقاليد والقصص الأدبية أن البضائع الثمينة كانت تنصب على (آغاد) من جميع الأنحاء بينما كان الحكام المحليون في المدن يرسلون الجزية الشهرية أو السنوية.

لقد كانت نزعة نارام سن الاستبدادية هي التي أدت حسب آراء السومريين وحسب الواقع إلى سقوط أسرته. فالقصص الأدبية متناقضة بالنسبة لنارام سن، فقد

عومل ليس لكونه بطلاً عظيماً وحسب بل كحاكم سيء الحظ. إذ تذكر النقوش الخاصة بنارام سن عن حدوث عصيان عام في المدن الرئيسية في سومر وأكاد بما فيها كيش وأوروك وسيبار Sippar بينما تذكر القصص أن الإلهة انين Innin قررت هجران العاصمة آغاد ولكن السبب المباشر لانسحاب العطف الإلهي عنه أصبح الآن معروفاً فهناك نص سومري تم جمعه من قطع متناثرة موجودة في عدة متاحف يصف هذا النص في أوائل سطوره ازدهار وعظمة وثروة آغاد Agade التي كان يهرع إليها الناس والشعوب من جميع الأنحاء ويقدمون الجزية ولكن أعمال نارام سن العامة وغير التقية سببت إنهاء هذا الازدهار وذلك لأنه سمح لجنوده بتدنيس ونهب وسلب معبد ايكور Ekur وهو معبد الإله الأعظم إنليل المتواجد في أقدس المدن السومرية نيبور. وهكذا فقد انتهت عظمة نارام سن وآغاد. وذلك أن أنليل الغاضب أرسل من تلال تلك الأراضي الخصبة شعباً بربرياً متوحشا هم الجوتيان gutians ولقد خرب هذا الشعب المتوحش المواصلات والتجارة وخرب أنظمة الري التي كانت تتطلب دوماً العناية والاهتمام الدائم وسبب المجاعة والموت خلال البلاد.

لم تكن نتائج سياسة نارام سن عند إنشاء الحكومة المركزية في اغاد سريعة وكارثية كما تدعي الأشعار السومرية. ومع أن غارات شعب الجوتيان Gutian على منطقة ما بين النهرين قد بدأت أثناء حكم نارام سن، إلا أن انهيار الحكم والسلطة المركزية لم تتم إلا في عهد ابنه ووريثه شاركا ليشاري SharkaLisharri.

ولقد قيل أيضاً إنه بالحقيقة لم يكن شعب الجوتيان Gutian هم العامل الوحيد في سقوط أسرة آغاد. إذ إنه وبرعاية أولئك الحكام ابتداءً من سرجون حتى نارام سن، لقد ظهرت مفاخر آغاد الثقافية والعسكرية وشعر بها السكان ابتداءً من شواطئ البحر الأبيض المتوسط وآسيا الصغرى عبر جميع منطقة الشرق الأدنى حتى سوزه Susa وعمان، بينما امتدت العلاقات الاقتصادية إلى مدى أبعد، فقد امتدت غرباً حتى قبرص وشرقاً حتى الهند. ولم تكن هناك من دلائل في النقوش المعاصرة تفيد أن شعب الجوتيان Gutian كان شعباً يهدد بشكل كافٍ بالتخريب والقضاء على هذا الوضع المزدهر ولا يمكن أن يكون هذا الخراب سبباً لإخفاء

الحقائق عمداً نظراً لأن الخصومات مع الدول - المدن المتمردة وشعب لولو قد ذكرت كلها بشكل صريح لا خفاء فيه. أما انوبانيني Anubanini وهو ملك شعب اللولو الذي قيل عنه إنه السوط المسلط على تلك البلاد فقد كانت قواه كافية لوضع مسلة تذكر انتصاراته الخاصة وقد كتب النقوش على هذه المسلة باللغة الأكادية وهذا يدل على انتشار ثقافة إمبراطورية آغاد حتى بين أعدائها.

وكانت هناك شعوب غير سومرية وغير سامية تشهد الحوادث في ذلك الزمن وبصورة خاصة الحوريون الذين ازدادت أهميتهم فيما بعد أي في منتصف الألف الثاني وقد كان هناك عمال حوريون في نيبور في فترة حكم سرجون وكانوا يعملون في صناعة الملابس وربما كانوا من أسرى الحرب الذين أخذوا من جبال زاغروس وقد سكنوا في شمال منطقة ما بين النهرين حيث ربما قد مارسوا بعض الضغط على المناطق الجنوبية ولقد نشأ ائتلاف من عدة شعوب في الغرب وقد اشتبكوا في خصومات عسكرية مع نارام سن مما سبب له انكساراً ذريعاً.

إن هذه المجموعة من الضغوط هي التي هزمت الإدارة المركزية في آغاد وتركت البلاد عاجزة عن صد الغزاة القادمين من التلال وقد تلا ذلك فترة من الفوضى وانعدام السلطة التي تلخصها قائمة ملوك السومريين بالكلمات التالية: من هو الملك؟ ومن هو الذي ليس ملكاً؟

لا شك أن انهيار الحكومة المركزية الإدارية يعود إلى حكام المدن الذين كانوا قادرين في بعض الحالات على حكم مناطق أكبر من أراضيهم الخاصة بهم ومثال على ذلك ايريش التي تعزو إليها قائمة الملوك السومريين نشوء سلالة قصيرة العمر حكمت في الزمن ما بين آغاد والجوتيان وتذكر قائمة الملوك السومريين حوالي واحد وعشرين ممن يدعون بالملوك في فترة الجوتيان ولكن نظراً لقصر مدد حكمهم، فقد حكم واحد منهم فقط مدة تزيد على السبع سنوات وقد حكم نصفهم مدداً تبلغ ثلاث سنوات أو أقل. ومن الممكن أنهم كانوا عبارة عن زعماء عُينوا لمدد محددة وتُشير القصص فيما بعد إلى همجيتهم وبربريتهم، وإذا كان نظامهم الاجتماعي بدائياً فمن المحتمل أن الملكية كنظام متطور لم تظهر بعد

بينهم وهناك بعض الأسماء بينهم هي أسماء سامية وهذا يعني أنه قد بدأ اندماجهم في المجتمع وتشير بعض النقوش التي تمثل تقاليدهم الطقوسية أنهم قد اعتنقوا الطقوس الدينية للبلاد. هذا وقد انتهت فترة الجوتيان التي بدأت حوالي عام ٢٢٥٠ق.م أي بعد حكم نارام سن مباشرة وانتهت في عام ٢١٢٠ق.م.

يتذكر شعب بابل المتحضر فترة هيمنة الجوتيان بالحقد والكراهية. ويتذكرون عهدهم بأنه كان زمناً بربرياً لم تحترم فيه الآلهة ونُهبت المعابد ولم تحترم النساء والأطفال ولم تُوفر، ولقد شعر سكان الجزء الشمالي من البلاد بفداحة أعمال الجوتيان وهي منطلقة أكاد، بينما وفي سومر فإن عدداً كبيراً من الدول - المدن القديمة قد بقيت في حالة فعلية من الاستقلال مع أنهم ربما قد قاسوا من أضرار فعلية من جراء الموجه الأولى من غزوات الجوتيان البربرية. وكانت إحدى المدن التي أصابها جزء طفيف من الضرر هي لاغاش إذ إن هذه المدينة التي حطمها لوجال زاغيسي في أوائل صعوده إلى السلطة في سومر قد أعيد بناؤها وترميمها خلال أيام الازدهار الذي حدث خلال حكم أسرة أغاد ولا شك أنها قد استعادت قسماً كبيراً من أهميتها كمرفأ نهري، فقد استطاعت الآن أن تستعيد جزءاً كبيراً من بهائها وخصوصاً بعد تحطم قوة أغاد الخصم العنيد لها والتي كانت المنافس الرئيسي في تجارتها عبر الخليج الفارسي. وفي أثناء غياب الحكومة المركزية القوية استطاع حكام لاغاش أن يُوسعوا سلطتم إلى ما وراء مدينتهم وشكلوا بذلك أسرة جديدة عُرفت بالتفصيل من خلال النقوش التي صنعها الحكام بأنفسهم مع أنها ظلت مجهولة بالنسبة لقائمة الملوك السومريين. وكان أفضل حاكم ظهر في هذه الأسرة هو الرابع واسمه غوديا Gudea الذي وصلتنا معلومات كثيرة عن أنشطته وذلك من النقوش الكثيرة التي خلفها ولقد امتدت سلطة غوديا إلى ما وراء لاغاش ولقد ادعى أنه كان سيداً لنيبور وايريش لدرجة أنه قام بحملة عسكرية قصد بها نهب مدينة أنشان Anshan العيلامية. ومع أن نقوشه كانت تهتم بأعمال التقوى وبناء وترميم المعابد وإتمام واجباته الدينية تجاه الآلهة، إلا أنها كانت تحتوي إشارات حملاته التجارية فقد ادعى أن مدن ماغان وميلوحا وغوبي

وتلمون قد قدمت له الجزية، وإن سفنهم وصلت إلى لاغاش وهي تحمل الأخشاب والحجارة والبتامين والجبس اللازمة لبناء هيكل نينجرسو Ningirsu بينما كانت البضائع الأخرى التي جُلبت من الخارج تشمل الصخور البركانية المتبلورة من ماغان Magan وخشب الأرز من لبنان والنحاس من كيماش Kimash والذهب من هاهو Hahu وربما كانت المدينة الأخيرة واقعة في آسيا الصغرى وكيماش ربما كانت واقعة في جبال بلاد فارسالغربية.

لقد تلا غوديا ابنه ثم حفيده ولكن وخلال الفترة المتأخرة من حكمهم أصبحت لاغاش خاضعة لحكم دول - مدن أخرى كانت تتقوى لتصبح دولاً مستقلة.

ولقد قام اوتو هنغال Utu-Hengal ملك ايريش ٢١٢٠-٢١١٤ق.م بالقضاء على أواخر الحكام الجوتيان وقد اعترف به نتيجة لذلك في نيبور بلقب ملك المناطق الأربعة وكان أول من اتخذ هذا اللقب هو نارام سن وقد ذكر هذا اللقب في قائمة الملوك السومريين. وهذا يدل على إعادة ظهور نظام الحكومة المركزية التي جسدها نارام سن فقد كانت الدول - المدن الخاضعة يحكمها حكامها الذين كانوا يعترفون باوتو ـ هنغال سيداً لهم وكان أحد هؤلاء الحكام يدعى اورنامو Ur-Nammu حاكم أور الذي أصبح فيما بعد حاكماً مستقلاً (٢١١٣-٢٠٩٦ق.م) ولقد أسس هذا الحاكم أسرة شهيرة نشأت منها إمبراطورية في غاية التنظيم وكانت أكثر تماسكاً من امبراطورية سرجون وقد دامت مدة تزيد على القرن (٢١١٣-٢٠٠٦ق.م).

تُظهر فترة الأسرة الثالثة في أور الحضارة السومرية في أبهى أشكالها. ومع أنه قد عُرفت أعداد هائلة من الألواح التي تعود إلى الأسرة الثالثة في أور والتي يبلغ عددها في المنطقة خمسة عشر ألف لوح وهي تمثل وثائق قانونية وإدارية واقتصادية وقد نشرت جميعها وربما كان هناك حوالي مئة ألف لوح أو أكثر قد تم اكتشافها ضمن الحفريات ولكنها لم تنشر. ولكن معرفتنا بها ليست مفصلة نظراً لأن تلك الوثائق قد كتبت بأشكال مكثفة وهي مملوءة بالكلمات الفنية التي لم يستطع العلماء فهمها إلا بشكل عام. وتشهد الشواهد الأثرية المباشرة على وجود ازدهار

فعلي في ذلك الزمن حيث إنه تشاهد في كل مكان آثار أنشطة البناء فقد بنى أور ـ نامو Ur-Nammu نفسه وهو مؤسس تلك الأسرة أو رمَّم عدة معابد في مدن قديمة كثيرة بما فيها ايريش ولاغاش ونيبور واريدو ولكن أعظم عمل قد سجل له كان عاصمته (أور) إذ إنه أعاد ترميم الزقورة على شرف إله القمر نانا Nanna وكانت الزقورة هذه عبارة عن برج قائم مستطيل الشكل ومدرج (على ثلاث مراحل وبعضهم يقول إنه كان على مرحلتين أبعاده حوالي مئتي قدم في مئة وخمسين قدماً عند القاعدة وربما كان ارتفاعه سبعين قدماً مع وجود مزار على قمته ولقد جدد هذه الزقورة بعض الملوك المتأخرين وأخيراً كشف عنها الغطاء ابتداءً من عام ١٩٢٣ فصاعداً السير ليونارد وولي Leonard Woolley ولا تزال ماثلة كشاهد على تقوى الملك أور نامو (انظر اللوحة ٣أ). ولقد قام خلفاء أور نامو بأعمال البر والتقوى. ومن الممكن بعد إلقاء نظرة عجلى على الألواح التي ظهرت في تلك الفترة وأن تجرى بعض الحسابات الممتعة بالنسبة إلى أحد المعابد. والمعبد الخاص الذي نقصده قد بني أثناء حكم الخليفة الثالث لأور نامو وهو شو سوين Shu- suen وقد بني ذلك المعبد تكريماً للإله شارا Shara في أوما Uma ومع أن ذلك المعبد لم يكن أكبر معبد في سومر، إلا أن بناءه استغرق سبع سنوات على الأقل ولقد استعملت حوالي تسعة ملايين قطعة من الطوب الكبير وسبعة عشر مليوناً من الطوب الصغير في بنائه. ويخبرنا أحد الألواح أن باستطاعة العامل أن يضع ثمانين طوبة في اليوم ولهذا فقد حسب أن صنع هذه الطوبات فقط يستغرق عمل ألف رجل لمدة سنة على الأقل.

لم تكن أنشطة أور نامو مقتصرة على الترميم فحسب فقد حفر أور نامو عدة أقنية وذلك تشجيعاً لنجاح الزراعة والتجارة وأعاد العلاقات التجارية مع ماغان Magan وقد أدعى أنه قد قام بمنجزات ذات تأثير مباشر وهي إعادة النظام والأمان في البلاد، ذلك النظام الذي كان مفقوداً في زمن الغزاة الجوتيان الذين عملوا على تخريب النظام القديم. ولقد ثبتت ادعاءات أور نامو عندما وجدت شظايا من مجموعة من القوانين التي نشرها وقد استعيدت هذه القوانين.

ولقد ساعد ذلك النظام الإداري الذي ساد أثناء حكم تلك السلالة على تقليل خطر وقوع أي عصيان وذلك بسبب زيادة سيطرة الأنسيين Ensis الذين أصبحوا عبارة عن حكام حقيقيين بدلاً من كونهم أمراء محليين ولكن حرموا من السيطرة على الحاميات العسكرية، بينما قل خطر استيلاء الحاكم على السلطة المطلقة من خلال الروابط المحلية وذلك بوجود نظام المراسلين الملكيين بينما تأمنت العلاقات الخارجية مع الأمراء خارج الإمبراطورية عن طريق وجود ممثلين دبلوماسيين.

لقد خلف أور نامو ابنه شولجي Shulgi (٢٠٩٥-٢٠٤٨ق.م) الذي زادت في عهده مساحة الإمبراطورية وهيبتها خلال حكمه الطويل فقد حدثت حملات عسكرية إلى خارج بابل، وكانت نتيجتها أن أصبحت عيلام وآشور ضمن سيطرته الاقتصادية. وقد أجبرت شعوب الحدود الشرقية على الالتزام بالنظام نتيجة لقيام حملات تأديبية وتحالفات تصاهرية بالزواج ما بين الأميرات السومريات والحكام المحليين ولقد عمل شولجي Shulgi كما عمل والده وحلفاؤه في بناء المعابد ولقد خلفه اثنان من أولاده وهما عمار سوين Amar-suen (٣٠٤٧-٢٠٣٩ق.م) وشوسوين Shu-sueu (٢٠٣٨-٢٠٣٠ق.م) وقد خدم هذان الولدان حاكمين لبعض المدن خلال حياة والدهما وفي أثناء حكم هؤلاء بدأت موجة جديدة من التسربات السامية من الغرب وفي هذه المرة لم تتخذ هذه الموجات أشكال عائلات مسالمة من المهاجرين بل هجوم مسلح لقبائل بأجمعها. ولدفع خطر هؤلاء بنى شوسوين نظاماً من الأسوار الدفاعية. ولقد جلبت هذه الموجة من الغزاة الخراب لأسرة أور الثالثة، مع أن ذلك الخراب لم يشمل عهد شوسوين بل عهد خليفته ايبي سوين Ibbi-Suen (٢٠٢٩-٢٠٠٦ق.م) الذي شهد سقوط تلك السلالة.

لقد اعتلى ايبي سوين Ibbi- Suen العرش وهو صغير السن ولقد أظهر استمرار خدمة موظفيه أنه لم يحدث أي تغيير سريع في السياسة. فلقد وردت الضرائب (بشكل مواشي) من جميع أجزاء الإمبراطورية. ولكن وبالتدريج بعد السنة الثانية من حكمه بدأت مدينة بعد مدينة تتخلص من حكمه ولا تعترف به. ولقد ظهر هذا عندما لم تعد الوثائق القانونية والإدارية الصادرة في تلك الأمكنة

تؤرخ بالصيغة الزمنية* السنوية. وهناك دلائل أخرى على تحطيم الإمبراطورية وذلك أنه بعد السنة السادسة من حكم ايبي سوين لم يعد الحكام في المدن المختلفة يرسلون ما عليهم إرساله من الحيوانات والتقاديم للإلهة نانا وهي إلهة أور. وقد عُرف ذلك التهديد عندما وجد أن الصيغة الزمنية للسنة السادسة من حكم ذلك الملك تذكر ترميم أساليب الدفاع في المدن الرئيسية وهي نيبور وأور. ولقد وصلت إلينا المعلومات عن الحوادث الجارية عن طريق رسالة مفتوحة موجهة إلى أيبي سوين من شخص يدعى إيشبي إيرا Eshbi Erra وهو أجنبي من مملكة ماري كان قد خدم ايبي سوين وأصبح ملكاً بعد سقوط الإمبراطورية على مدينة ايسين Isin. ويقول ايشبي ايرا هذا إنه قد كلف بشراء الحبوب من منطقة ايسين Isin وكازالو Kazallu وهما مدينتان في منطقة أكاد ويذكر أنه قد اشترى كميات كبيرة من الحبوب (١٤٤٠٠٠ غورا أي حوالي ١٠،٠٠٠ طن) بسعر رخيص مقداره نصف شيكل فضي ثمن الغور) ويقول إن الأسعار قد تضاعفت الآن ويذكر أخباراً سيئة وهي أن الآمورو(العموريون) وهم شعب أتى من الصحراء الغربية) كانوا يقتحمون طريقهم وصولاً إلى البلاد وهم يستولون على القلاع واحدة تلو الأخرى وإنه لم يكن قادراً على تقديم الحبوب إلى أور والتي كان قد اشتراها. وقد اقترح أن يعينه الملك مسؤولاً عن ايسين ونيبور وقد وافق الملك على هذا الاقتراح.

إن أسعار الحبوب الرخيصة التي اشترى بها ايشبي إيرا تدل على أن هجوم العمورين قد حدث بعد موسم الحصاد تماماً. وكانت أور تعتمد اعتماداً كلياً على الحبوب المستوردة التي لم يستطع ايشبي - ايرا أن يقدمها مما أوقع المدينة في حالة من اليأس ويقول ايشبي ايرا إنه مستعد لدفع ضعف الثمن إذا سمح له الموظفون بإيصال الحبوب إلى أور. وكنتيجة لهذا الوضع وقع التضخم في أور بحيث إنه خلال السنة السابعة أو الثامنة من حكم هذا الملك أصبح سعر الشعير والسمك أغلى

* - الصيغة الزمنية كانت وسيلة من وسائل تاريخ الوثائق القانونية والإدارية. ففي كل عام كانت تكتب جملة قصيرة تعود إلى حادث ما حدث في تلك السنة وتشره الملك عن طريق ذكر الإله وكانت السنة تعرف بهذا الحادث وهناك بعض صيغ نموذجية: مثلاً ضربت المدينة في هذا العام أو لقد صنع الطبل الطقوسي لأجل الإلهة ابنانا Innana أو لنضع في هذا العام العرش السماوي لأجل الإله نانا Nanna.

خمسين ضعفاً وستين ضعفاً من السعر العادي وكنتيجة لذلك فقد انتشر التضخم في الأسعار والمجاعة في سومر مما أنتج التمردات والثورة ضد ايبي سوين، وبعد السنة السابعة من حكمه ظهر من عدم استعمال الصيغة الزمنية أن هذا الملك قد عُزل ولم يعد معترفاً به في نيبور وهي مدينة الإله انليل الذي كان يهب الملك لمن يشاء.

لقد بدأت إمبراطورية ايبي سوين بالتقلص تدريجياً حتى أصبحت مؤلفة من مدينة أور مع أن بعض حكام المناطق الأخرى احتفظوا بالولاء الشخصي للملك، إلا أنه لم يكن باستطاعتهم بذل أي دعم فعال. وقد دخل ايشبي ايرا ضمن هذه الفئة ولكنه ظل موالياً لايبي سوين قدر الإمكان ولكنه وقبل إنهاء السنة الثانية عشرة من حكم ايبي سوين بدأ ايشبي ايرا بإصدار الصيغة الزمنية معتبراً نفسه حاكم ايسين Isin.

ومع سقوط السلطة المركزية في سومر وأكاد واجهت البلاد أخطاراً وتحديات جديدة ومنها التهديد الدائم من قبل ساكني الجبال الواقعة إلى الشرق. وذلك أنه ولمدة عدة سنوات قبل نهاية عهد ايبي سوين تعرضت البلاد إلى غزوات قام بها بعض شعوب عيلام. هذا وإن صدور صيغتين زمنيتين من ايشبي إيرا في ايسين وهي التي تشير إلى حدوث بعض الانتصارات على تلك الشعوب، إنما يدل ذلك على أن مناطق بابل الوسطى فضلاً عن الجنوبية قد تأثرت. فقد اقترح أن العيلاميين كانوا حلفاء لايبي سوين وقد هاجموا المدن المتمردة ولكن مصير أور لا يجعلنا نصدق هذه الأقوال. ففي السنة الرابعة والعشرين من حكم ايبي سوين قامت جماعة من الشعوب من عيلام بالهجوم على البلاد مما سبب تخريب أور ونقل ونفي ايبي سوين نفسه إلى عيلام. وهكذا فقد انتهت آخر أثار السلالة الثالثة في أور. أما أور نفسها فقد تركت فيها حامية عيلامية لجباية ضرائب من بقايا تلك العاصمة المهدمة ولم تطرد تلك الحامية حتى استطاع الأشبي ايرا Eshbi Erra أخيراً أن يعيد تنظيم مملكته.